حقائق ووقائع عن الإعلام القرآني

بقلم
رمضان لاوند

تـمّ تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

حقائق ووقائع عن الإعلام القرآني

الفصل الأول

في تاريخ الدعوات الدينية التي عرفها الشرق الأوسط معالم وحقائق هامة ترمز إلى الخطة الهادفة التي توسلتها العناية الإلهية في ايقاظ البشر على حقيقتهم ، في تسليط الأضواء على الحضور الإلهي وفي تشكيل التصورات الدينية التي يعتبرها الله سبحانه وتعالى عنوان هداية وطريق رشاد.

ولو حاولنا أن نستعرض مسيرة الأنبياء ونستبين طريقة كل منهم في مواجهة الضلال وتعليم الناس حقيقة الإيمان ، والكفاح لكشف عصابة البغي والضياع عن عيون البشر ، لوجدنا أمامنا ملحمة كاملة حفلت بفنون وألوان من الوعي الذكي ، والصبر الطويل ، والتضحية الفائقة ، والواقعية في مناقشة المعارضين والمتمردين ، وصدم العقول الزائفة .

والملحمة هذه تستوعب كل الخطط التي يأخذ بعضها برقاب بعض والتي يستبين كل مؤرخ ذكي أن كلاً منها قد وضعت موضع التنفيذ في ضوء مدرسة إعلامية تعليمية توجيهية دقيقة غايتها توفير الظروف الفكرية والروحية الملائمة لجعل العقل الواعي قاعدة أخيرة للهداية الإلهية .

الإعجاز المادي ومنطق العقل

والثابت أن الخطة التعليمية الإلهية قد اعتدت أول ما اعتمدت من طرائق الهداية عملية المزج بين المعجزة المادية التي تصدم من يشاهدها وتثير رعبه من ناحية كما تحفزه من ناحية أخرى إلى التساؤل عما وراء هذه المعجزة من الحضور الإلهي وعظمة الخلق الرباني .

ولو حاولنا الدقة في المراقبة لوجدنا أن دور المعجزة المادية في تقريع المعارضين لرسالة النبوة والكافرين بوجود الله أكبر كثيراً من دور المنطق العقلي وسياسة الإرشاد التعليمي . بل أن المعجزة المادية تبلغ من

العنف والقسوة في بعض الأوقات مبلغاً يتم به استئصال مدينة بكاملها أو عشيرة بكل أفرادها غير القلة القليلة جداً من المؤمنين بهذه الرسالة .

وتأتي قصة الفلك التي أمر الله سبحانه وتعالى نبيه نوحاً عليه السلام ببنائها ، نموذجاً فريداً لعملية الصدمة المادية الرهيبة. أوَليس أن الطوفان الذي اجتاح جماهير الكافرين والمشركين بعد الانتهاء من بناء الفلك هو المعجزة المادية التي اجتاحت الأشياء والناس وغمرت كل سهل وواد وجبل في الوقت الذي حملت فيه مياه الطوفان هذا الفلك التي بناها نوح عليه السلام بكل من فيها ؟ لنقرأ القصة في القرآن الكريم فنستبين من ثم هذا الدور الخاص الذي قامت به المعجزة المادية تقريعاً وتأديباً وتخويفاً لمجتمع المشركين والكافرين.

وقبل أن نقرأ هذه القصة يجدر بنا أن نمر سريعاً بالمقدمات التي سبقت أحداثها وهي مقدمات طويلة حدثنا فيها الله سبحانه وتعالى على لسانه تارة وعلى لسان نبيه نوح تارة أخرى حديث الجهود التي بذلها النبي عليه السلام لإقناع قومه ولتعليمهم حقيقة الكون وما وراءه ..

إن في سورة نوح عرضاً رائعاً لمقدمات معجزة الطوفان في كل آية منها لوحة متكاملة لجانب من الجهود التي بذلت من أجل هداية هؤلاء البشر .

1) أنذر نوح قومه وطالبهم بعبادة الله .

2) أنبأهم أن الله يغفر لهم ذنوبهم إن أقلعوا عن المكابرة والمعارضة .

3) وعاد نوح إلى ربه يناجيه ويعلن له عن طبيعة جهوده أنه قد دعا قومه ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ..

4) وتمضي الآيات الكريمة تصف بإعجاز إلهي ذلك الحوار الذي جرى بين نوح وقومه حتى إذا يئس النبي عليه السلام منهم جأر بالدعاء قائلاً لربه :" وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا " . ثم يسارع النبي على طريقة الاستدراك مستثنياً العدد من المؤمنين بادئاً بنفسه يطلب المغفرة لها ولهم جميعاً فيقول في الآية الأخيرة من السورة " رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا "..

وهنا يأتي أمر الله ببناء الفلك . وتمضي الآيات الكريمة تصف حواراً من نوع آخر بين النبي والمشركين من قومه .. فيه سخرية منهم وتحدّ لا يقف أبدا . حتى إذا جاء الوقت المعين أمطرت السماء وجاشت

الأرض بالماء وطغى الطوفان على كل شيء وكل إنسان غير الذين حملهم الفلك من الحيوان والناس المؤمنين بالله .

قال تعالى وقد قضت إرادته أن تنزل العقوبة القارعة بالساخرين المشركين . سورة هود الآيات 36 –44 .

" وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (36)وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37)وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38)فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39)حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40)وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41)وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (42)قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)"..

هكذا كانت نهاية الشرك والمشركين . وبمثل هذه المأساة الرهيبة القارعة ختم فصل من فصول الصراع بين الخير والشر . بين إرادة التعليم والهداية وبين إرادة التجهيل والغواية ولكن كان حظ الناس من الطوفان القارع أكبر من حظهم من التنوير المضيء للقلوب فلأنّ سنة الله في خلقه قضت أن تكون المعجزات المادية الخارقة مدخلاً إلى عصور بشرية لاحقة تتزايد فيها احتمالات الاتعاظ والاعتبار.

ونحن هنا لا نحاول أن نمضي مع الأسباب الخفية والعميقة التي قضت أن تكون إرادة الله على هذه الصورة . والله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الناس كلهم من طراز الملائكة " لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" ، بل تقتصر على الملاحظة وتقرير الوقائع وحسب ".

والملاحظ في جملة الآيات القرآنية الكريمة التي تقص علينا مراحل حياة النبي نوح عليه السلام ، وهي حياة طويلة جداً كانت مرحلة الدعوة إلى الله منها خمسين وتسعمائة عام ، إن الملاحظ أن فيها الأمر الصارم والدعوة الخالية من المحاكمات العقلية الدقيقة وإن كانت في معانيها متفقة مع الفطرة الخالصة وللفطرة منطقها البسيط الحازم الذي يجنب المناقشات المطولة .

المهم أن الإعجاز المادي في نبوة نوح عليه السلام هو إعجاز التأديب والعقوبة أكثر منه إعجاز تعليم وتدريب وهداية . إن الذين أفادوا من هذه المعجزة وأتيح لهم أن يتعلموا منها هم القلة من المؤمنين وبعض أهل بيت النبي نوح عليه السلام . أما الكثرة الساحقة فلم يكن الأمر بالنسبة إليها كذلك لقد لقي الجميع حتوفهم فذهبت مأساتهم مثلاً في تاريخ العصيان والشرك .

مزيد من الإعجاز التعليمي

وتمضي الأيام ليظهر بعد دهر من القرون أو السنين نبي كريم آخر هو في تاريخ النبوات ومن خلال المنطق القرآني نفسه أبو الأنبياء الذين جاؤا من بعده وتعاقبوا واحداً وراء الآخر يحملون مشعل الدعوة إلى الله . هذا النبي الكريم هو سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام .

والواقع أن لأبي الأنبياء مع شعبه قصة تتصل من ناحية بقصة نوح عليه السلام ومن ناحية أخرى تعتبر تجاوزاً لها في تفصيلات الطريقة والمنهج .

الكشف الذاتي أولاً

كانت البداية بالنسبة لإبراهيم الخليل عليه السلام كما تكون بداية كل إنسان سليم الفطرة خالص النفس من الشوائب يجب عن الحقيقة فيما حوله . فهو أبداً يتساءل عن سر هذا الكون العجيب الذي يحيط به من كل جانب . ففي النهار شمس مضيئة يشيع بها الدفء وتتحرك الحياة والأحياء وفي الليل نجوم وقمر تأخذ بالألباب .

وكان للغموض الذي يحيط بالنجوم والقمر تأثير خاص في نفسه عليه السلام فراح يسائلها عن صانع هذا الكون ومدبره والمشرف على مقدراته . وأخذ يفكر بصوت مرتفع ويحاكم الأشياء من حوله ثم يحتكم فيها إلى عقله الفطري السليم ويسجل الله سبحانه وتعالى هذه المحاكمة في الآيات 75 حتى 79 من سورة الأنعام فيقول عز من قائل : وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)فَلَمَّا رَأَى

الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(79) "..

بمثل هذا المنطق الواضح السليم الذي يتجنب محاكمات الفلاسفة ومناورات العقول المعقدة جرت المحاكمة الفريدة وثم حوار بين أبي الأنبياء عليهم السلام وبين قومه في محاولة قاصدة إلى معرفة الحقيقة القائمة وراء الكون .

وكذلك القاعدة التي ميز بها صاحب المحاكمة بين الغاني والباقي والخالق والمخلوق منطلقة من فكرة الثبات والتحول . لقد كفر بالكوكب حين أفل عند الفجر كما كفر بالقمر رغم روعة ضيائه ثم كفر بالشمس وهي التي سخرت لبعث الدفء والحياة في الأحياء بسبب أفولها ايضاً .

لقد شعر أن تحول هذه الأجرام السماوية يفقدها جلالها وقدرتها المستقلة على الفعل والخلق . ومن ثم أدرك أن القوة ذات الجلال والقدرة المستقلة قائمة وراء هذه الأجرام كلها ومن ورائها ومن فوقها رغم عظمها وما تتميز به من البسطة والسيطرة الظاهرتين .

هكذا شاع اليقين في نفس إبراهيم الخليل وقت له بذلك رحمة ربه وأدرك كما لم يدرك من قبل قصة الخلق وحقيقة الكون .

محاكمات مع الناس

وانطلق أبو الانبياء عليهم السلام حاملاً رسالة ربه إلى الناس بادئاً بأبيه آزر الذي رفض التصديق به. وهو في دعوته تلك لا يقتصر على التذكير بالإله الواحد ونعمه ولفت الأنظار الى الحقيقة الربانية بل بدأ خطة فيها من المحاكمات العقلية حظ غير قليل . ويبدو أن البشر آنذاك كانوا قد حققوا تقدماً في إدراكهم العقلي وأصبحوا قادرين على التحرر من الخرافة التي يصنعها أمام المجاهيل الكونية التي تحيط بهم من كل جانب ولكن هذا لا يعني أنهم قد تحرروا من الوثنية التي تتجسم فيها تلك الخرافة .

من هنا سأل أبو الأنبياء أباه وقومه عن التماثيل التي يعبدونها فكان جوابهم هو الجواب التي تعارف عامة البشر عليه من أن عبادتهم هي تقليد لأبائهم الذين كانوا يعبدونها من قبلهم .

ويتهمهم إبراهيم الخليل بالضلال لا يستثني من ذلك أباه ولا آباءهم الأولين فتثور ثائرة القوم . حتى إذا أدرك عقم المناقشة المباشرة أوحى الله إليه أن يلجأ إلى خطة عملية يكشف بها عن عجز تماثيلهم وتفاهة

شأنها . ويمضي عليه السلام فيحطم هذه الأصنام غير الصنم الكبير منها ويحيل تهمة التحطيم إليه فيسقط في أيدي القوم وهم الذين يعلمون أن الأصنام لا تتكلم ولا تتحرك .

وقد كان حواراً متسماً بمنطق قوي لا يخلو من البساطة أيضاً ولكنها بساطة الفطرة الذكية اللماحة ذات التفكير الواقعي السليم .

ولننظر في الآيات القرآنية الكريمة كما وردت في سورة الأنبياء الآيات 51 – 67 قال تعالى :

" وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (51)إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52)قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ (53)قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (54)قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55)قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (56)وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57)فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58)قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59)قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبراهيم (60)قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61)قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم (62)قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63)فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (64)ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (65)أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (66)" .

قصة كاملة امتحن فيها عقل الناس أيام أبي الأنبياء عليهم السلام . وكانت المحاكمة العقلية فيها آية على تطور إيجابي في داعية الناس وادراكهم .

ولو تتبعنا تفصيلات الحوار لاستبانت لنا ظاهرة التقدم في عقول القوم آنذاك كما اتضح الفارق الكبير بين القوم المعاندين في سفه سافر أيام نوح عليه السلام وبين المعاصرين لأبي الأنبياء ممن لم يصروا إصرار السفاهة المكابرة الغبية بل إصرار الراغب في الحفاظ على تراث الآباء . ولذلك فقد وجدوا في الإعلان عن متابعتهم لآبائهم نوعاً من الشرعية النسبية لما يتمتع به الآباء في نفوسهم من النفوذ المعنوي ومن الاحترام والتوقير .

لقد قالوا لإبراهيم الخليل : "وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ " لكأنهم كانوا راغبين بذلك في إعفاء أنفسهم من مسؤولية هذه العبادة بإحالتها إلى أبائهم الأولين .

والواقع أن دعوة النبي لهم مع ما رافقها من التحديات السافرة حين اتهمهم وآباءهم بالضلال المبين، قد أثارت عجبهم وأدهشتهم ، وظنوا فيها الظنون . بل خيل إليهم إنها مزحة وفن من فنون اللعب . ولا غرابة في مثل هذا التساؤل يصدر عنهم وهم الذين يطوون أجنحتهم على احترام شديد لآبائهم الأولين. فمثل هذا الاحترام يكفيهم مؤونة التفكير والتقدير الواعي لسقوطهم في الوثنية . لقد كانوا بمثل هذا الإحترام يحاولون فيما يبدو لنا ، أن يسقطوا المسؤولين على الآباء كما يقول علماء النفس اليوم . من هنا قالوا للنبي إبراهيم الخليل : "أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ"؟.. ويسمح النبي الكريم لنفسه متابعة المناقشة في جد ورصانة غير مبال بمعالم الاندهاش على وجوههم فيعلن لهم أن ما أتى به هو من عند الله رب السموات والأرض الخالق لهن والمدبر لشؤونهم مؤكداً أنه الشاهد على ربوبيته .

ويبدو لنا من سياق الآية التالية أن النبي نفسه كان يشعر بأهمية منطقه وبإسهام العقل المتطور نسبياً في تقرير الحقائق والوقائع ولذلك لم يجد حرجاً في التهديد بالكيد وتنظيم ما يعري به هذه الأصنام من حرمتها وخرافة قداستها . ولم يبال القوم بتهديده إما لأنهم لم يصدقوه ولم يأخذوه مأخذ الجد وإما لأنهم كانوا تحت ضغط الخجل الذي أحسوا به أمام منطقه السليم . ومهما يكن الأمر فقد كانوا بانصرافهم عنه يحاولون تجنب الاصطدام ثقة منهم بأن حرمة الأصنام التي تتصل بها حرمة الآباء كافية لحمايتها منه.

ولكن النبي المتحرر من هذه الخرافة والمدرك لخطأ متابعة الآباء فيما لا يرضي الله لم يلبث حتى حطم الأصنام في الهيكل ثم بالغ في الحربة كما تقول بعض الروايات فعلق الفأس بجيد الصنم الكبير الذي أبقى عليه فلم يلحقه ببقية الأصنام الصغيرة لغاية في نفسه .

ويعرف القوم بعد ذلك بما أصاب أصنامهم فيتساءلون عن هوية من حطمها لكأنهم لم يكونوا يصدقون من قبل أن أحداً من الناس يجرؤ على مثل هذا العمل الخطير . ويتذكرون أو يأتي من يذكرهم قولة الفتى إبراهيم فيسألونه عمن فعل هذه الفعلة بأصنامهم ويجيبهم إجابة الساخر المقتدر مشيراً إلى الصنم الكبير محيلاً التهمة إليه ثم يضيف قائلاً : وإذا لم تصدقوني فاسألوهم عمن فعل بهم هذا ؟"..

وهنا يستيقظ العقل مرة أخرى ويرجعون إلى أنفسهم يحتكمون معها إليه ويكتشفون المحالة في موقفهم والحربة اللاذعة التي عرتهم وكشفت عن مخازيهم ثم يعترفون بينهم وبين أنفسهم بظلمهم .

لكن الاعتراف العلني بالظلم ليس بالأمر اليسير . إنه يكاد يكون أشد أنواع الرياضات على النفس وأقوى مظاهر الشجاعة . لكن تعلقهم بالتقاليد الموروثة جعلتهم أمام الحجة القوية الفاضحة لهم في وضع

لا يحسدون عليه فتوزعت نفوسهم بين أمرين : الإحساس بالخجل أمام الفضيحة من ناحية والمكابرة في المناقشة من ناحية أخرى . هنا جاءت الآية الكريمة محكمة جزلة بليغة حين قالت تعقيباً على اكتشافهم لظلمهم " ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ " . نكسوا على رؤوسهم خجلاً من موقفهم ورفضوا توجيه السؤال إلى الأصنام المحطمة بدعوى أنهم لا ينطقون .

وهنا ينتهز النبي تلك الفرصة الفريدة ، فرصة ضعفهم الذي ترافقه المكابرة في المناقشة فيتابع كلامه وقد صنف فيه جانب السخرية وتغلب عليه طابع الجد الذي يخالطه استفهام استنكاري فيردف مجيبا : " قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ " ..؟

ويشعر النبي بالوقع الشديد الذي أحدثته عبارته في نفوس القوم فيتابع كلامه وقد اتخذ طابع التبكيت والزراية مع إثارة قاصدة للحكم العقلي فيقول لهم :" أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ".

وهنا تقف قصة الحوار وتبلغ الأزمة أعلى درجات التوتر . لقد كان منطق النبي حازماً قوياً ألجأ القوم إلى طريق غير نافذ . فهم مرغمون على اختيار أحد أمرين لا ثالث لهما . فإما أن يعلنوا عن إيمانهم بالإله الخالق الذي أتى أبو الأنبياء يدعوهم إلى عبادته .

وبذلك يحققون حريتهم التامة ويخرجون من آثار التقاليد ومن الخضوع الأعمى للآباء والأجداد وإما أن يسقطوا في المكابرة والمعاندة .

والظاهر أن الارتقاء الذي حققه العقل البشري آنذاك لم يبلغ الدرجة التي يتمتع معها بالحرية . ولذلك فقد سقط القوم في المكابرة ورفضوا الانصياع لنداء العقل فبادروا إلى اتخاذ خطة العنف بديلاً من المناقشة الحرة المسؤولة . لقد فجعوا في أحلامهم وفضحت سفاهاتهم الوثنية فكبر عليهم أن يعترفوا بانحرافاتهم .

عودة إلى المعجزة المادية

وهنا تنادى قوم إبراهيم وقد قرروا التخلص منه واختاروا أن يحرقوه بالنار ظنًا منهم أن موته هو وحده الذي يحررهم من استرداد التناقض بين باطلهم وحقه ، أو بين رغبتهم في متابعة التقاليد وإصرار النبي على فضح هذه التقاليد .

إن قرارهم بإحراق النبي آية على فقدانهم للشجاعة وضعف حظهم من سلطان العقل . " قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ "..

فيبادر الله سبحانه وتعالى إلى إنقاذ نبيه ورسوله بمعجزة مادية خارقة وقد ألقى به في النار " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إبراهيم " ويخرج النبي من النار معافى ويخسر كيد القوم الذين كفروا ويجعلهم الله من الآخرين أفعالاً .

والملاحظ أن المعجزة هنا ليست معجزة استئصال وعقوبة كما هو شأن معجزة الطوفان التي أتت على قوم نوح من قبل غير القلة من المؤمنين الذين استقلوا الفلك بل هي معجزة تعليم وتخويف وحفز إلى التفكر والتدبر .

ويتابع إبراهيم الخليل بعد ذلك دعوته ويمضي في الإعلان عن كلمة الله لا يبالي آمن القوم أو لم يؤمنوا . كل الذي أراده الله سبحانه وتعالى هو أن يجعل من المعجزة المادية وسيلة قهر معنوي وردع نفسي وتسجيل موقف إلهي يثبت للمنكرين أن وراء الأصنام قوة إلهية قادرة فوق خرافة الأوثان وتقاليد عبادتهم التافهة .

عودة إلى المحاكمة العقلية

على أن هذا الموقف المتحدي الذي وقفه أبو الأنبياء من عامة قومه لم يكن الموقف الوحيد . فقد أراد الله له أن يتخذ موقفاً آخر هو أعلى مستوى وأقوى في رد المعاندين ليكون بدوره بمثابة النموذج الذكي الآخر لنوع من المحاكمة يبهت به الذي كفر .

وخلاصة هذا الموقف نجدها في الآية 258 من سورة البقرة . قال تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إبراهيم فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبراهيم فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"..

الروايات القديمة تقول أن هذا الحوار قد جرى بين أبي الأنبياء وبين صاحب ملك كبير . ويؤكد البعض أن النمرود هو صاحب هذا الملك ونحن لا يهمنا شخص الملك بل المهم هو الحوار نفسه والمستوى الجديد الذي ارتفع إليه . والقرآن الكريم لا يشير إلى النتائج المترتبة عليه بالنسبة لأبي الأنبياء غير أن صاحب الملك قد بهت أمام الحجة الدافعة وسكت عن الجواب .

والثابت أن هذا النوع من الحوار هو بمثابة المدخل إلى عالم جديد يكون فيه للعقل ومحاكماته دور أكبر في مواجهة الضلال ومقارعة أهله . إنه إرهاص لما سيحدث في مستقبل الأيام . وقد بقيت المعجزة المادية هي الملجأ الذي يلجأ إليه صاحب الرسالة الإلهية لينقذ نفسه من الخطر المحدق .

نموذج آخر من التوعية

جاء في الآية 260 من سورة البقرة ما يلي :

" وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"..

هل نفهم من هذه الآية أن الشك قد داخل نفس إبراهيم الخليل ؟ وهل يمكن أن يحدث شيء من ذلك ؟

الواقع أن هذا الحوار السريع الذي جرى بين أبي الأنبياء وربه هو بمثابة تعليم . أو هو تعيين لطبيعة الخلق الإلهي التي تعتمد على ملكة في العقل الإنساني هي فوق المحاكمات العقلية والمناقشات التي تعتمد المهارة في التلاعب بالأفكار والعواطف ربما يمكن أن نطلق عليه اسم " الهندسة العقلية " ..

ونقصد بالهندسة العقلية تلك التي عرفناها عند الفلاسفة وفي منطقهم الأرسطي بالذات . ولما كان المنطق تابعاً من الملاحظات الحسية الظاهرية فإنّ من الطبيعي جداً أن تكون إرادة الخلق الإلهي شيئاً وراء العلاقات الحسية أو ما يسمى بنظرية السببية . الإرادة الإلهية تتلخص في كلمة " كن" فيكون الشيء الذي تريده المشيئة الإلهية وبالتالي يصبح المنطق الأرسطي مجرد بناء عقلي يعتمد الحواس في ربطه المعلول بالعلة ويقرر أنه لا وجود يتبع من العدم لأن فاقد الشيء لا يعطيه . والشمول في هذا المنطق ، وهو شرط المتفلسفين ، يستوعب كل موجود حتى الوجود الإلهي نفسه. ولما كان مثل هذا الاستيعاب يتنافى مع فكرة التسلسل العلمي في غير توقف فقد افترض المنطق الأرسطي أن تكون في الأزل علة أولى مع تجريد هذه العلة من حرية الإرادة والتصرف .

لقد افترض منطق أرسطو وجوداً أولياً للعلة الكبرى لا لشيء ولا لإعطاء بنائه العقلي صورة متكاملة تتم به لعبة الهندسة الفكرية . ثم لم يلبث هذا المنطق أن رفض فكرة الحدوث للأشياء والموجودات الكونية لأن فيها اعترافاً بإرادة إلهية حرة تتنافى مع حتمية العلاقة بين السبب والمسبب . ولذلك فقد قررت

فلسفة أرسطو أزلية كل المعلولات وكانت عليه العلة الأولى شيئاً نظرياً اقتضته ضرورة الابتداء من بداية معينة وان كانت هذه البداية قديمة أزلية .

هذه الهندسة العقلية لا يمكن أن تعي الذات الإلهية وأن تدرك العلاقة الحقيقية بين الذات والمخلوقات لأنها تسقط عامل الإرادة المتمثلة في الأمر الإلهي .

إذن فقد أصبح واضحاً أن الإرادة الإلهية هى التفسير الوحيد للوجود في دعوة الرسل وفي حقيقة الأشياء . والإرادة هذه تحتاج إلى نوع من الوعي العقلي يتجاوز لعبة المنطق وترابطها الهندسي . وقد قضت عناية الله سبحانه وتعالى أن تستيقظ في نفس أبي الأنبياء هذه الرغبة الخاصة في التصرف إلى جوهر الخلق وبالتالي إلى طبيعة العلاقة بين الوجود أو بين الموت والحياة فألهم الله نبيه ورسوله توجيه الطلب إليه : " رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى " .. فيجيبه الله سبحانه وتعالى بصيغة السؤال التعليمي "أَوَلَمْ تُؤْمِن ". فيقول النبي عليه السلام إعلاناً عن ظاهرة الوعي التي هي وحدها التي تحقق الطمأنينة " قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ".. وبذلك تكون الدعوة النبوية قد قررت حقيقة إدراكية جديدة تتجاوز الهندسة العقلية المشدودة إلى العلاقات الحتمية التي ترتبط بها الأسباب والمسببات. إنها تلك التي أطلق عليها المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد اسم " الوعي " ويقصد به فيما نقدر أنه ظاهرة الإدراك الخفي لما وراء الأكوان المادية من قوة خالقة مبدعة لا سبيل إلى تفسير الوجود إلا بها بحيث تفرض نفسها فرضاً على العقل الإنساني السوي وتجنب الإنسان الوقوع في التناقض والمحالة اللذين وقع فيها منطق أرسطو والفلاسفة والعلماء الماديين من بعده حتى اليوم .

وهنا –أي بعد أن يعرب أبو الأنبياء عن الغاية من طلبه –يأتي أمر الله إليه بأن يأخذ أربعة من الطير فيذبحها ويمزج أجزاءها بعضها بالبعض الآخر ثم يقسمها إلى أربعة أجزاء في غير نظام ويجعل على كل جبل جزءاً ثم يدعو هذه الطيور فيأتينه سعياً إليه .

وهذا الأمر الإلهي لا يعني غير شيء واحد هو تقرير أن بداية الخلق لا تدرك بمنطق الهندسة العقلية بل تدرك بتلك الملكة الخاصة التي تشكلها إرادة الاستمرار الكوني . وهو استمرار مستند إلى توازن دقيق معقد الأطراف تماماً كما يكون توازن الأخلاط في داخل الجسد الإنساني .

فالجسد الإنساني كما يقول الأطباء ثمرة هذا التناقض الغريب العجيب بين هشاشة مادته وقابليته للتعديل والتفكك في ساعات قليلة وبين استمراره في الحياة مدة أطول مما لو كان مصنوعاً من الصلب .

والفضل في ذلك يعود إلى ظاهرة التوازن التي تستند إلى إرادة خفية بالغة القوة . وكذلك الشأن في التوازن الذي يتحقق به استمرار الموجودات الكونية الكبرى . إن نظرة جادة إلى المكتشفات التي حققها علم الأحياء في احتمالات "الجينات" الخلقية . وفي تقدير هؤلاء العلماء أنها تبلغ أربعة آلاف مليون احتمال في كل جين . إن نظرة جادة إلى هذه الظاهرة كافية للكشف عن طبيعة هذا التوازن البالغ الدقة .

فإذا كانت التشكلات الخلقية قد بلغت في احتمالاتها هذا العدد الخيالي وفي حدود كائنة على صورة الذرة التي لا ترى بالعين المجردة فكيف لنا بحساب احتمالات التشكلات على مستوى المجرات الفلكية؟ وما يدرينا لعل التشابه أن يكون كاملاً ومتساوياً في الاحتمالات الخلقية بين المجرات العملاقة من ناحية والذرات الدقيقة من ناحية أخرى .

هذه الوقائع والحقائق لا يستوعبها منطق الهندسة العقلية الذي يعتمد السببة المطلقة. بل تستوعبها ملكة الوعي التي تستند إلى إدراك فيه معنى التسليم بإرادة الخلق الإلهي المعجز.

هذه كلها لم يكن من المفروض أن يدرك الناس الذين كانوا يعاصرون النبي إبراهيم الخليل . ولكن كان من المفروض أن تطرح من قبل الله عز وجل كبداية لخطة تعليم إلهي تعتمد أكثر فأكثر على منطق الوعي وبصورة متدرجة .

صحف إبراهيم

ومما يلفت النظر أن التعليم الإلهي الذي يعتمد الكلام الموحى إلى الأنبياء قد تدرج أيضاً . لقد كان هذا التعليم في أيام نوح عليه السلام مجرد دعوة إلى الله لم يقيد في كتاب ولم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى كتاب مسطور يبقى عند الناس ويرجعون إليه كما لم يشر إلى وجود صحف مكتوبة . فالصحف لم ترد على أنها أداة لتسجيل كلمات الله واستمرارها بعد وفاة النبي مرجعاً للتعليم والهداية إلا بالنسبة لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل وقد أطلق الله سبحانه وتعالى عليها اسم " الصحف " باعتبار أنها كلمات قليلة نسبياً لم تبلغ مبلغ الكتاب . فهي إذن إعلان عن نقلة من الدعوة العامة غير المعتبرة بتشريعات وأوامر خاصة ببناء المجتمع لمنظم كما في دعوة نوح عليه السلام إلى الدعوة المفصلة نسبياً والمعتمدة على قدر أكبر من المحاكمات العقلية والوعي السليم لعلاقة الله بالكون .

ولذلك فإنّ هذه الصحف لم تستمر ولم يحفظها لنا التاريخ أبداً حتى بصورة محرفة . إن شأنها هو كشأن المحاكمات العقلية أو تجربة الخلق التي تحققت بطلب من أبي الأنبياء ، مجرد تسجيل لموقف وإعلان عن نقلة جذرية في مراحل الدعوة النبوية في حدود خطة إعلامية مطردة النمو.

ولو قرأنا سورة الأعلى المكية لوجدنا ما يثبت هذه الظاهرة وما يشير إلى طبيعة الاختصار في خطة الدعوة الإلهية . قال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : " سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1)الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2)وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3)وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4)فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى (5)سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى (6)إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7)وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8)فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى (9)سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى (10)وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11)الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12)ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13)قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16)وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18)صُحُفِ إبراهيم وَمُوسَى(19) "..

لهذه الآيات القليلة التي جمعت فوعت خلاصة الدعوة الإلهية تتبدى لنا خطة الإشارة السريعة والتعليم اللماح مع استيعاب لمعاني الدعوة الرئيسة وهي نفسها التي جاءت على لسان موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء ولا سيما أنبياء بني اسرائيل .

إن فيها تنزيهاً لله سبحانه ووصفاً لقدرته في الخلق والهداية وإخراج النبات من الأرض وتعليماً لما يريده سبحانه لغرض التيسير ثم حقاً على تذكير الناس ووصفاً لنوعية كلّ منهم: نوع يخشى الله فهو سعيد ونوع يشقى بعناده يدخل النار لا يعرف فيها حياة فيطمئن ولا موتاً فيطمئن ايضاً. وينتهي هذا التوجيه الإلهي الكريم بالإعلان عن أن هذه المعاني قد احتوتها الصحف التي أوحى بها إبراهيم وإلى موسى عليهما السلام.

وتضيع صحف إبراهيم بين ما ضاع من وثائق التاريخ وتبقى صحف موسى بعد أن دخلت عليها تعديلات خرجت بها مما أنزلت من أجله .. ولئن بقيت الصحف موسى المحرفة شخصية تاريخية متجسمة في فئة من البشر فإنّ صحف إبراهيم قد أصبحت جزءاً من وجدان التاريخ ووقائعه المتلفعة بأحداث جاءت من بعد.

ولا يهم ذلك في تقدير الله عز وجل . فالدعوة هى ابتداء من أول الأنبياء حتى آخرهم . كلهم ينادي بالوحدانية وعبادة الله الخالق للأكوان والمبادىء للحيوان والإنسان. أما القرون بين فترات الوحي

المتباعدة تباعد أشخاص الأنبياء في أيام التاريخ فهي تتمايز في الطريقة والأسلوب تبعاً للمستويات التي ترتفع إليها مسيرة البشر .

خرق طريق

ولو رجعنا البصر قليلاً فيما قررناه ولاحظنا خلال النصوص الواردة من قبل لأدركنا الحقيقة التالية :

لقد كانت نبوة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام مفرق طريق في مسيرة البشر الكبرى . إنها الظاهرة الأولى التي قدر الله سبحانه وتعالى معها أن تكون هدايته للناس والمعجزات التي ترافقها بمثابة حجر الأساس للبناء الإعلامي الذي يعتمد العقل ومحاكماته الموزونة وتسانده المعجزة المادية لفرض الإثارة النفسية ولفت النظر المباشر إلى قوة السماء العلية لا لغرض العقوبة والاستئصال والردع . هكذا كانت المحاكمة العقلية التي جرت على صورة الحوار بين أبي الأنبياء وقومه من عامة الناس أولاً ثم بينه وبين علية القوم متمثلين في صاحب الملك وبينهما بمعجزة تحويل النار المحرقة الى برد سلام . ومن وراء هذا كله ذلك الحوار التعليمي العظيم وما عقبه من ذبح الطير وتقسيمه بين أبي الأنبياء وربه .

ولكن هذا لا يعني أنه لم تحدث بعد معجزات فيها معنى العقوبة الرادعة كالاستئصال بالرمح العاتية كما في قوله تعالى :

" وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ " سورة الذاريات الآية 41 ..

" وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ " سورة الحاقة الآية 6 .

" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ .. " سورة فصلت الآية 16.

أو كما أصاب قوم صالح حين أرسل الله الناقة فتنة لهم فلم يترددوا في عقرها مخالفين عن أمر النبي فجاءهم العذاب الشديد .

هذه المعجزات المادية الرادعة والتي قصد بها كما يقرر القرآن الكريم ، توقيع العقوبة الكافرين المعاندين لا يتعارض ظهورها بعد أبي الأنبياء مع الحقيقة التي قررناها من قبل . إنها أشبه ما تكون بالجيوب القليلة التي تحتاج إلى التصفية بعد انتهاء الحرب الشاملة .

إنها ، أي هذه المعجزات الرادعة الزاجرة ، عمليات مساعدة تقع على هامش الأحداث الكبرى التي تعاقبت في أنبياء بني اسرائيل ابتداء من يعقوب واسحاق واسماعيل ويوسف وغيرهم .

فخط النبوة الذي ابتدأ بأبي الأنبياء ثم انطلق بعد ذلك في مسيرة مستمرة عبر عدد من الرسل والذي جعل من بني اسرائيل خاصة غرضاً للدعوة والتبشير هو الذي يمثل الاتجاه التعليمي الرئيسي .

لقد قضت سنة الله سبحانه وتعالى أن يتم التعايش بين قمة البشرية في تلك العهود القديمة وبين سفحها أيضاً .. لقد كانت الشعوب آنذاك كما هي اليوم سلماً متفاوتة الدرجات والتطور والوعي .. والمهم في تسجيل الأحداث والوقائع هو مراقبة الطلائع الواعية التي كانت تتمثل في أولى العزم ومن أقاربهم من أنبياء بني اسرائيل ..

هذه الظاهرة لا تتعارض مع المنهج العلمي الذي يستند إلى الوقائع فعلم الإنسان اليوم مثلاً يحاول أن يتعرف إلى أخلاق البشر وصفاتهم وخصائصهم في المراحل الأولى لظهورهم من خلال الشعوب البدائية التي ما تزال موجودة حتى التوم في بعض أفريقيا واستراليا وجزائر المحيط الهادي وبعض أميركا اللاتينية وغيرها .

والتاريخ للبشر المتقدمين في حضارتهم اليوم لا يضع الإنسان بصورة عامة في مرحلة البدائيين منهم ولا يجد أي تعارض بين ما يقرره من معالم التقدم وبين استمرار البدائيين في أوضاعهم المتخلفة ..

على أن شعوب الحضارات المتقدمة نفسها تتباين فيما يجلته من مراحل التقدم أو فيما سجله بعضها من التراجع بعد التقدم أو من التقدم بعد التراجع . إن هذا كله لا يعني أن ما تقرره علوم الحضارات الحديثة هو غير صحيح لمجرد أنها تحصر مادة دراستها في فريق معين من البشر .

إذا صحت هذه الحقيقة بالنسبة لعلمي الإنسان والتاريخ وغيرهما فلماذا لا تكون صحيحة بالنسبة لعلم الإعلام والإرشاد النبويين وما تمثل فيه من الخطط والأساليب الإلهية .

في ضوء هذه الحقيقة قلنا : أن ظهور أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو مفرق طريق في مسيرة البشرية الصاعدة .

فأما نوح عليه السلام فهو آية على ظاهرة العنت التأديبي في المعجزة في الوقت الذي لا يخلو فيه من التعليم والتوبة بالنسبة للأقلية الناجية . وأما إبراهيم عليه السلام فهو آية على غلبة ظاهرة التعليم المستند إلى المحاكمة العقلية والحوار الرصين والكشف عن طبيعة الخلق الإلهي في الوقت الذي لا يخلو فيه المعجزات المادية القارعة للنفوس السادرة والقلوب اللاهية الضالة وإن خلت من غرض الاستئصال .

وكما أن التعليم الذي يعتمد المنطق البسيط لم يختف في سلوك الأنبياء ذوي الأبعاد المحلية من أمثال هود وصالح فرافق المعجزات ذات الطابع الزجري العنيف ، فإنّ المعجزات التي قصد منها الإدهاش وإثارة الإعجاب ثم التعليم في النهاية قد رافقت المحاكمات العقلية والقصص النبوي الهادف في حياة أنبياء آخرين من أمثال يعقوب ويوسف واسماعيل من أنبياء خليل الله إبراهيم عليه السلام.

حكمة بالغة امتزج فيها التعليم الهادف بالعقوبة الزاجرة بقدر معلوم . وتتفاوت النسبة بينهما تبعاً للظروف التي تحيط بكل نبي من الأنبياء عليهم السلام .. مع ملاحظة أن شجرة النبوة النازلة من إبراهيم عليه السلام بالذات قد اعتمدت بالأمر الإلهي جانب الإعلام التعليمي والمحاكمات العقلية أولاً ثم المعجزات المادية ذات الغرض التعليمي أيضاً. ولئن كانت هناك عقوبة فهي لا تبلغ مبلغ الاستئصال والإفناء كما هو الشأن عند أنبياء آخرين من غير ذوي العزم ومن غير الشجرة النازلة من إبراهيم الخليل عليه السلام .

على أن متابعة هذا البحث تقتضينا التعرف لظاهرات نبوية أخرى فيها ملامح تفصيلية وفنون من الأحداث تساعدنا على إدراك الخطة الإعلامية في الرسالات السماوية .

حقائق ووقائع من الإعلام القرآني

الفصل الثاني

خلاصة وتوضيح

من حق هذه الدراسة علينا أن نعود إلى بعض ما ورد في الفصل الأول لتوضيح الغامض ولتسليط مزيد من الضوء على جوانب من الظاهرة الإعلامية القرآنية التي بدأنا بالتعرض لها من قبل .ذلك أن الوضوح في خطة البداية يساعدنا على تحقيق المزيد من الوضوح في خط النهاية ..

وتلخيص الفصل السابق في سطور قليلة يساعدنا على بلوغ ما نقصد إليه . لقد قررنا في ذلك الفصل الحقائق والوقائع التالية :

1) أن الإعلام القرآني قد بدا واضح الملامح والخطوط ابتداء من الدعوة النبوية الكريمة التي نهض لها نوح عليه السلام . واستبان لنا من الملاحظات المسجلة .

أ- أن المعجزة المادية التي تعني القفز من فوق القوانين والسنن الكونية ، وهي أي القوانين مما قررته الذات الإلهية في سابق علمها ، قد تدخلت كعامل مساعد في تعليم الناس وتأديبهم وقد كانت خطة هذا التعليم عن طريق المعجزة تعتمد خطة التأديب والاستئصال والعقوبة العنيفة الزاجرة فتكون بمثابة العظة البليغة للقلة القليلة من المؤمنين بدعوة نوح عليه السلام .

ب- أن الحوار الذي كان يجري بين نوح وقومه قد التزم حداً أدنى من المحاكمات العقلية . لقد كانت طريق النبي عليه السلام أشبه باللمسات السريعة أو الصدمات التي تعتمد الفطرة الخالصة . فاقتصرت على الدعوة إلى عبادة الله دون الإطناب في المناقشة المطولة وكانت فترة الدعوة المديدة التي استغرقت 150 عاماً ضرورية لتحقيق هزة نفسية وعقلية كافية عند ناس لم تكن عقولهم وقلوبهم قد تفتحت لمعاني الدعوة كما لم تكن قد استعدت لاستقبال النور الإلهي . هذه الفترة هي فترة الطفولة البشرية الطويلة والبطيئة . وهي الدليل على أن طفولة البشر كمجموع أشبه بطفولة الفرد . كلتا الطفولتين في حاجة ماسة إلى قدر كبير من التجارب والمكاسب التي تنمو بها الملكات الإنسانية المختلفة .

ت- أن القسوة الظاهرة في معجزة الطوفان التي عوقب بها قوم نوح توكيد لبدائية العقل البشري في تلك المرحلة التاريخية . هذه البدائية التي لا تهزها غير الشدة في الإجراءات تماماً كما تكون الصدمة

الكهربائية التي يستعين بها الطبيب لبعث الحركة والحياة في الأعصاب الراكدة التي فقدت حيويتها تحت ضغط ظروف خاصة .

ث- أن المعجزة المادية التي تتوسل العنف التأديبي حتى الاستئصال والإبادة لم تقف عند قوم نوح وحسب بل استمرت إلى ما بعد قومه فتناولت للغرض نفسه قوم هود وصالح كما انسحبت إلى ما وراء عصر أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل فتناولت قوم لوط وشعيب رغم أن عصر أبي الأنبياء قد سجل نقلة جذرية أساسية في مراحل تطور الدعوة الدينية ، إن في ميدان الحوار والمحاكمات العقلية أو في ميدان المعجزة التي تميزت بغرض جديد هو حماية النبي من عدوان المعاندين المكابرين .

2) أن الإعلام القرآني في شخص أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام قد سجل نقلة في طريقة الدعوة إلى الله . فظهرت محاكمات وأنواع من الحوار لعب فيها العقل والوعي الروحي دوراً أكبر كثيراً من الدور الذي قاما به في أيام نوح عليه السلام . كانت هذه المحاكمات وفنون الحوار كما يلي :

أ – حوار مع الذات من خلال التأمل في خالق الكون عبر الكواكب والقمر والشمس . وقد انتهى هذا الحوار بالتوجه إلى الله .

ب – يلتفت أبو الأنبياء ، عملاً بالوحي الإلهي لفت أبيه آزر وعامة الناس في موته . ويتكشف حواره معهم عن ظهور بداية وحي أشرنا إلى تفصيله في الفصل الأول .

ج – ينتقل أبو الأنبياء إلى محاورة صاحب الملك الذي يمثل طبقة النخبة القائدة وقد تم هذا الانتقال بعد أن أحدث حواره الأول مع عامة قومه هزة عامة وزلزلة في النفوس . وكان من نتيجة هذا الحوار أن صاحب الملك قد بهيت وأسقط في يده كما جاء فى الفصل الأول .

د – وأخيراً يأتي الحوار الأعظم الذي جرى بين أبي الأنبياء وربه وهو حوار بالغ الأهمية لأنه يسلط الضوء على طبيعة العلاقة القائمة بين الذات الإلهية وبين الأكوان كلها . ولما كان توضيح هذه العلاقة في الخطوات الأولى للتفكير البشري هو الذي يعين المسيرة التالية لكل جهد حضاري فقد استبان لنا هذا الحوار على صورة الخط الفاصل بين الرؤية الإسلامية النابعة من الوحي الإلهي الكريم وبين الرؤية غير الإسلامية النابعة من خيالات الأسطورة والمعتمدة على المهارات واللعب العقلية والرياضات النفسية التي تمزيت بها كل الحضارات غير الإسلامية.

لقد ثبت لنا أن الحقيقة الإلهية عند أرسطو، واضع علم المنطق اليوناني هي فرضية ضرورية لتكميل اللعبة المنطقية . والتي لا تستقيم القضايا المنطقية إلا بها . فهي إذن أشبه بالفرضية التي يتخيلها عالم الرياضيات ليثبت صحة نظريته . فإذا اختلفت النظرية فقد وجب بالتالي اختلاف الفرضية أو زوالها . وهذا هو السر في أن الفرضية الإلهية عند اليونان والرومان والأوروبيين في نهضتهم الحديثة قد داخلها تغيرات كثيرة حتى جاء يوم من الأيام زعم فيه صانعو الفلسفة الجدلية المادية المعاصرة لنا أنهم في غير حاجة إلى هذه الفرضية لإثبات الحقائق الكونية ولتوضيح رؤيتهم الخاصة .

وإذن فالذات الإلهية قد بدت عند أرسطو على صورة العلة الأولى . وقد افترضها الفيلسوف اليوناني مرغماً لأن نظرية الخلق عنده لا تستقيم في منهجه المنطقي إلا بتخيل علة أولى وجدت منذ الأزل ووافقت المعلولات الصادرة عنها وجودها دون أي فارق زمني . وليس هذا وحسب بل ظهرت العلة الأولى عنده محرومة من الإرادة والتفكير في غير ذاتها . فهي أشبه بالملك الذي يملك ولا يحكم وليس له من الأمر شيء . وهي بالتالي افتراض يكمل به الفيلسوف ما تخيله من نظريته الكونية الشاملة في زعمه .

في ضوء هذا المفهوم الأرسطي النابع من التخيلات التي استعان بها العقل لصنع دورة كونية نابعة من إدراكه الحسي نستطيع من ثم أن ندرك الغاية من الحوار الذي جرى بين أبي الأنبياء عليه السلام وبين الله عز وجل حين سأل الأول ربه عن كيفية إحيائه للموتى .

ومن الطبيعي ألا يكون سر الإحياء الإلهي نابعاً من علاقة منطقية . كما ليس في وسع الأساليب العقلية رغم ما تتميز به من الدقة أن تسلط الضوء على العلاقة القائمة بين الخالق والمخلوق . ذلك أن أشياء العقل نابعة من قوانين السببية بينما أشياء الخلق الإلهي نابعة من إرادة الخلق وحسب . وإذن فإنّ الجواب عن مثل هذا السؤال متصل في طبيعته بالإرادة الإلهية التي تقول للشيء "كن فيكون " وكانت التجربة العملية التي عينها أبو الأنبياء عليهم السلام هي البرهان الوحيد على ذلك .

أمام هاتين الظاهرتين يستبين لنا الفرق التالي بين الرؤية الفلسفية وبين الرؤية الدينية الإسلامية .

الرؤية الفلسفية تقرر أن الله أو العلة الأولى ظاهرة منطقية . وبالتالي أنها فرضية منطقية ، الغاية منها تكميل نظرية الخلق النابعة من الملاحظة والاستقراءات الحسية . بينما الرؤية الدينية الإسلامية تقرر أن الله ظاهرة إرادة. فبالإرادة الإلهية تخرج الأكوان من العدم وبهذه الإرادة بالذات يخرج الحي من الميت

والميت من الحي . وهي بهذا شيء وراء المهارات والطرائق المنطقية لتكون من مدركات فوق العقلي الذي يتجاوز مهارات التخيلات النابعة من الإدراك الحسي .

الوعي فوق العقلي ينتهي إلى الإيمان . والتخيلات تنتهي إلى صنع الأساطير والدوران في اللعب والمهارات المنطقية :

هـ – وتأتي المعجزة المادية في نبوة أبي الأنبياء عليهم السلام بمثابة الدرع التي تحمي النبي من عدوان المعتدين وبالتالي عظة وعبرة لهم .. وهو تحول جرى بسبب التطور العقلي عند قوم إبراهيم الخليل ..

قواعد البيت

بعد هذه المقدمة نعود مرة أخرى إلى سياق البحث الأساسي لنستبين أبعاد الخطوة التالية التي قام بها بعد ذلك خليل الله أو أبو الأنبياء عليهم السلام .

قال تعالى في سورة البقرة : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126)وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(127)رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(128)رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ(129)"..

وقال تعالى في الآية 96 من سورة آل عمران : " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ"..

في هذه الآيات الكريمة فصل آخر من فصول الرسالة التي حملها أبو الأنبياء عليهم السلام . إنها إعلان عن مركز الدعوة الذي اختاره الله لعباده فهو بهذه المثابة حجر الأساس الذي ترفع قواعد البيت المحرم فوقه ليكون مصدر اشعاع لا لقوم بعينهم ولا لمنطقة بعينها بل لكل العالمين .

لماذا هذا الاختيار ؟

ولكن لماذا اختارت العناية الإلهية وادي مكة مكان للبيت الحرام ؟ وما هو السر في انتقال إبراهيم الخليل من قريته " أور " القائمة في جنوب العراق إلى هذه القرية ذات الصخور السوداء والأرض المجدبة بعد أن قام بدورة سياحية تناولت سوريا الجنوبية ومصر ؟

أكان ذلك بمحض الصدفة ؟ أم هو تدبير من لدن حكيم خبير ؟ أو إعلان رمزي من دور المناطق والأقطار المحيطة مباشرة بالجزيرة العربية ؟

وكيف يمكن لمثل وادي مكة أن يتحول إلى مصدر اشعاعي للدعوة النبوية في كل عصور التاريخ ؟ أسئلة كثيرة تفرض نفسها متعاقبة على عقل المراقب الأريب لا سيما وأن وادي مكة هو واد لا يتمتع بأي عنصر من عناصر الحفاظ على الوجود البشري . فهو أرض صخرية تحيط بها هضاب ذات طبيعة بركانية لا تسقط العين منها إلا على صور ومشاهد كابية متجهمة .

الجزيرة نقطة ارتكاز

الظاهرة الأولى التي تتميز بها الجزيرة العربية هي أنها نقطة ارتكاز للأرض التي تحيط بها من كل جانب تقريبا. فهي في الجنوب والجنوب الغربي تتاخم اليمن الأرض السعيدة . وما يسمى اليوم بجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية وهي تضم السلطنات السابقة الممتدة عبر الساحل الجنوبي كله حتى بطاح مسقط وعمان . وهي في الشمال الشرقي والشمال الغربي تتاخم قطري العراق وسوريا بينما تتصل في جانبها الغربي الشمالي بأرض مصر. أما من الشرق فتتصل بمسقط وعمان وإلى أقصى الشمال الشرقي بالكويت .

ويلاحظ أن الجزيرة العربية ليست نقطة ارتكاز من الناحية الجغرافية وحسب بل هي مصدر لهجرات بشرية كان لك منها دور بالغ الأهمية في بعث نهضة حضارية معينة فوق جانب من الأرض المحيطة بها من الخارج لكأن الجزيرة قد قامت بالأمس وكما تقوم حتى اليوم بدور مستودعات التموين البشرى للأقطار المحيطة بها .

إن نظرة سريعة إلى تاريخ الهجرات البشرية من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها تثبت بما لا سبيل معه إلى الشك والريبة بأن وجود الجزيرة هو ضرورة بشرية حضارية إلى جانب كونه ضرورة جغرافية .

أوَليس أن الكثرة الساحقة من النشاطات الحضارية في ميادين الفكر والدين والبناء والسياسة والتنظيم المجتمعي هي حصيلة الجهود التي قامت بها الجماعات المهاجرة من الجزيرة العربية ، إما لأسباب تتعلق بالانفجار البشرى فوق أرض الجزيرة أو بكارثة اقتصادية عارضة أو بطموح إلى تحقيق الرفاه والكسب المادي في الأراضي الخصبة المحيطة بمفازات الجزيرة الصحراوية ؟

لا صدفة

وإذن فإنّ وجود الجزيرة العربية ليس وليد الصدفة أو العبث . بل هو شيء من طبيعة النظام الحضاري العام والوحدة الجغرافية للمنطقة . فالصدفة تكون حين لا يكون للجزيرة العربية أي دور ايجابي أو سلبي . أي حين لا تتخذ لنفسها مكانا هو في جملة العناصر المكونة للتحركات الحضارية والبشرية بمثابة الجهاز المولد للطاقة .

لقد ثبت بالبرهان القاطع أن التنوع الجغرافي هو التناقض في صميم الوحدة أي أنه تعبير عن نظام التكامل الذي تستمر به الحياة وتتم به المفاعلة الإيجابية بين مختلف المناخات والتضاريس .

الحضارة والخامة البشرية

فإذا أدركنا أن كل نشاط حضاري يعني عملية استهلاك للطاقات البشرية المخزونة في داخل جماعة معينة ، وإذا تذكرنا رأي عميدنا السابق في علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون في أن حياة كل دولة تستمر في حدود عدد معين من الأجيال ، استبان لنا أن المجتمع المتحضر لا يلبث أن يتلاشى ويسقط في الانحلال ما لم يتزود بخامة بشرية جديدة تتميز بالقوة والخشونة والبساطة ..

ولما كان مجتمع الجزيرة العربية هو هذه الخامة المتصفة بالخشونة والبساطة والقوة فمن الطبيعي جداً أن تكون المجتمعات المتحضرة المحيطة بالجزيرة من كل أقطارها تقريباً في حاجة مستمرة إلى تجديد عناصرها البشرية بالهجرات الدورية أو غير الدورية أو بالهجرات الظاهرة والخفية التي تلفظها أرض الصحراء الفقيرة المجدبة .

وكما يصح هذا التفسير بالنسبة لظاهرة المفاعلة بين الأقطار المتاخمة للصحراء وبين الصحراء نفسها فهو صحيح أيضاً بالنسبة لمجتمعات الحضارة الغربية التي كان تتزود بخامتها البشرية من قبائل المناطق الجبلية القائمة في الشمال الأوروبي أو من الهجرات الواسعة التي كانت تأتي من سهوب سيبيريا ومفازاتها الثلجية . وفي هذه وتلك طبيعة الصحراء وظروفها المادية وصعوبة الحياة فيها مع فارق واحد هو أن السمة الظاهرة هنا هي الحرارة الشديدة وأن السمة الظاهرة هناك هي البرودة الشديدة .

وادي مكة جغرافياً وحضارياً

وإذن فإنّ وادي مكة هو ضرورة جغرافية وحضارية .. هو من ناحية رمز لأقصى مظاهر الإجداب والفقر المادي بسبب طبيعة أرضه الصخرية والحرارة المرتفعة لمناخه . وهو من ناحية أخرى موطن للخامة البشرية التي تعطيها هذه الأرض طابعها المعروف .

إن إبراهيم الخليل حين يرسم في سياسته الرمزية شبه دائرة حول الصحراء وينتقل من ثم إلى وادي مكة حيث تقوم أكثر الأراضي وحشية وغربة عن الظروف المعيشية المناسبة إنما يقرر بأن وحدة الحياة شيء مشروط يتناقض العناصر المكونة لها .

فوادي مكة من الناحيتين الجغرافية والحضارية هو النقيض المطلق للأقطار الخصبة الممرعة في أرض ما بين النهرين ، وفي سوريا الطبيعية الحالية بفنون من الخصب والاعتدال المناخي ، وفي أرض النيل . وباستمرار المفاعلة بين النقيض ونقيضه تتم دورة الحياة المتكاملة .

عودة إلى الآيات الكريمة

وبقراءتنا للآيات الكريمة التي تحكي قصة رفع القواعد من البيت المحرم في مكة نستبين ظاهرة بالغة الأهمية هي الإعلان عن دور هذا البيت القديم ورمزيته وفاعليته في شد قلوب الملايين إلى نقطة ارتكاز وحيدة .

في هذه الآيات يدعو إبراهيم ربه أن يتقبل منه عمله وأن يجعله وولده اسماعيل مسلمين وأن يهبهما ذرية مسلمة وأن يبارك هذه الذرية فيرسل فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آيات ربه ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكي نفوسهم .

وإذن فالبيت الحرام هو أرض التطهر ورمز الوحدة والمنطقة التي تشد قلوب الملايين لتربط عليها بالسكينة والأمن والقوة .

وبيت مكة ليس بدعاً جديداً . إنّ إبراهيم الخليل ليس أول من بنى هذا البيت ذلك لأن دور الوادي النفسي والأخلاقي والديني ليس دوراً مستحدثاً بل هو دور قديم وكل إليه منذ بداية الحياة البشرية . ولو كان هذا الدور مستحدثاً لبطلت وحدة الخلق وبالتالي فسدت سنن الله التي لا مبدل لها ولا مغير ..

يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى : " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ " فالبيت قائم معروف مكانه . وما فعله إبراهيم هو تجديد البناء وبالتالي عملية إحياء لدوره القديم والمتجدد باستمرار في استيفاء شروط الحياة الموحدة .

ولنا في الآية 16 من سورة آل عمران ما يؤكد هذه الحقيقة حين تعلن الآية أن البيت في مكة هو أول بيت وضع للناس . وبالتالي أول وأقدم قبلة يتوجه الناس إليها في ممارستهم لعبادتهم الله سبحانه وتعالى .

وليس شك في أن كل محاولة لتجاهل الدور الذي يقوم به البيت المحرم في مكة المكرمة هي أثر من آثار الانحراف الذي يشوه الرؤية الشاملة للحقيقة الإسلامية .

توضيـــح

وما يقال من أن جماعة دينية من مسلمي الهند ، هي جماعة الدعوة إلى الله ، تزعم أن مكة والمدينة لم تعودا صالحتين للإشعاع الروحي المطلوب هو في الحقيقة حلقة من حلقات الشعوبية التي تختبىء وراء الحاسة الدينية الظاهرة .

لقد غاب عن بال هذه الجماعة والمنتصرين لها من العرب أنفسهم ، وقد عرفت بعضهم ، أن البيت لا يقوم وحده دون الناس . وأن البيت والأرض والناس هناك يحققون وحدة لا يمكن أن تتجاهلها هذا إذا أدركنا وحدة الشخصية التي تشترك في صنعها عناصر الأرض والفكرة والبشر .

إن اختيار البيت يعني اختيار الأرض . واختيار الأرض يعني اختيار المجتمع الذي يقوم فوقها . وفي تاريخ هذه الثلاثية ما يثبت وحدة المصير المشترك لكل عناصرها .

حقيقة أساسية يجب أن ندركها هي أن القوانين الكبرى للحياة والموت وبالتالي لمسيرات التاريخ البشري لا تتغير أبدا . ولو تغيرت هذه القوانين لوجب أن يكون التاريخ البشرى مظهراً عبثياً خاضعاً للمصادفات وبالتالي للفوضى التي تنتهي إلى توقف مجرى الحياة . ولما كان مجرى الحياة لم يتوقف أبداً على امتداد وعي البشرية لتاريخها الحضاري ، ولما كانت الأحداث التي جرت وتجري حتى اليوم خاضعة لقانون الوحدة في التناقض والتناقض في الوحدة ، فإنّ الثابت أن التقلبات التي طرأت وتطرأ على هذه المنطقة الواسعة من عالم الشرق الأوسط هي أشياء في صميم المسيرة الخالدة لتاريخ البشرية .

مثل من الشمال الافريقي

ولو رجعنا البصر إلى تاريخ منطقة عربية إسلامية تعتبر حديثة العهد بالنسبة لمنطقة الجزيرة العربية وما حولها لواجهتنا في طبيعة الأرض في الشمال الأفريقي الظاهرة التي تواجهنا في أرض الجزيرة . إن البناء الجغرافي البشري في بلدان الشمال الأفريقي العربي المسلم هو نفسه البناء الجغرافي البشري في الجزيرة العربية مع فارق واحد هو وجود البيت الحرام في الجزيرة وحسب .

الصحراء الكبرى تضم كل أقطار الشمال الافريقي وهي في حقيقتها امتداد لصحراء مصر الغربية . إن دورها التاريخي هو تحقيق مفاعلة مستمرة ثابتة النبض متسقة الحركة بينها وبين المناطق الخصبة التي ترتفع فيها قواعد حضارة تستهلك بدورها طاقات البشر فيها وتحتاج بين الفترة والفترة إلى الخامة البشرية التي تجدد فيها طاقات الحياة المبدعة . والخامة هذه لا تأتي إلا من الصحراء .

أوَليس أن تاريخ المسيرة الحضارية في الشمال الأفريقي بكل ما تعاقب عليه من تحركات تتجه جماعاتها باستمرار من الجنوب إلى الشمال ، من مفازات الصحراء الى المدن الآهلة ، هو توكيد لنظرية " الحضارة وعلاقتها بالخامة البشرية "؟..

أوَليس أن الحركة الفاطمية الأولى قد سجلت انتصارها في نهاية القرن الثالث الهجري بفضل العناصر القبلية البربرية المهاجرة من الصحراء ؟ أوَليست دول المرابطين والموحدين والمرينيين وغيرها قد ظهرت بفضل هذه العناصر التي سقاها لهيب الصحراء وصلبت ثم انتفضت انتفاضة التطهر النفسي الذي يرافقه نوع من التزمت والعنف السياسيين وتغذيه رؤية فكرية واضحة ووعي ديني عميق ؟..

وإذا كانت الجزيرة العربية قد استقلت بالبيت الحرام فلأن وحدة الأمة لا تتحقق إلا بوحدة ينبوعها الروحي ورمزيتها الدينية وإذا كان الشمال الأفريقي لم يتمرد على هذه الوحدة الروحية فلأن وعيه العربي الإسلامي قد حطم فيه نزوات الشعوبية الفكرية أو الدينية رغم المسافات المادية الشاسعة التي تفصله عن مركز هذه الوحدة .

وفي ضوء هذه الحقيقة ندرك الأسباب الحضارية العميقة التي دفعت جماعات إسلامية في بعض بلدان الشرق الإسلامي الى إيجاد المبررات التي تتوسلها للإعلان عن ضرورة نقل المركز الديني العالمي من البيت الحرام إلى مكان آخر أو للتقليل من أهمية هذا المركز في تحقيق وحدة العالم الإسلامي .

فإذا كانت جماعة الدعوة إلى الله التي أشرنا إليها في فقرة سابقة ، قد نادت وتنادي حتى اليوم بضرورة نقل المركز الروحي للإسلام من مكة والمدينة إلى مكان ما من أرض الهند ، فإنّ هناك جماعات

أخرى قد اختارت للتعبير عن شعوبيتها نظرية استمرار النبوة من أجل انتزاع المبادرة من الشعب العربي المسلم كما هو شأن الجماعة القاديانية التي تدعى نبوة مؤسسها أحمد القادياني . وهناك أيضاً جماعات البابيين والبهائيين التي أسقطت بين ما أسقطته من العبادات ركن الحج . واعتبرت مكان اقامة شيخ الجماعة البابية أو البهائية قبلة للناس . يضاف إلى هؤلاء وأولئك أصحاب الفرق الباطنية الذين اسقطوا بدورهم أكثر الأركان الإسلامية ولا سيما ركن الحج وحاولوا انتزاع المبادرة من مجتمع الجزيرة حين منحوا أئمتهم من صفات النبوة وصفات الألوهية، ما يكفل لهم الخروج من وحدة الوجود العربي الإسلامي.

كل هذه الملاحظات والوقائع تثبت بما لا سبيل معه إلى شك وريب أن إقامة بيت محرم في مكة المكرمة ليست عبثاً ولا وليدة صدفة بل هي شيء في صميم التعليم الإلهي والخطة الإعلامية الإلهية التي يقصد بها تحقيق وحدة العالم الإسلامي وأن كل محاولة للنيل من أهمية الدور الذي يقوم به البيت الحرام والأرض الحرام هي محاولة قاصدة للنيل من وحدة الوجود الإسلامي على الصورة التي أرادها الله سبحانه وتعالى في سابق علمه.

إبراهيم يتحدث من وادي مكـة

قال تعالى في سورة إبراهيم ما يلي :

" وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (35)رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (36)رَّبَّنَا إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37)رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فِيَ الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء (38)"..

ماذا يطلب إبراهيم الخليل ؟

إنه يطلب :

1) الأمن للبلد الذي رفعت فيه قواعد البيت .

2) تجنيب أهله عبادة الأصنام .

3) توجيه قلوب الناس إليه يزورونه وقد استهوتهم منه المعاني الدينية التي يرمز إليها ومن ثم توفير الرزق الحلال لأهله .

4) توكيد أن هذه المطالب هي من أمر الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فهي ليست نزوة من نزوات النبي ولا رغبة صادرة عنه لمجرد أنه وجد نفسه في مثل هذا المكان الموحش . فهوإذن لا يدعو الله لتحقيق هذه المطالب لحماية ذريته التي أتت بها المصادفة بل يطلب هذه الحماية في ضوء إرادة إلهية عليا تهدف إلى إبراز الغاية البعيدة من اختيار النبي والبيت الذي رفع قواعده والأرض التي يقوم البيت فوقها والذرية التي تشكل مع الأرض والبيت وحدة مجتمعية متكاملة ..

لكأن هذه الآيات الكريمة تعلن بلسان فصيح واضح دور هذه الكائنات التي وردت أسماؤها في ثنايا كلمات الآيات فتقرر :

أ – أن المركز الروحي الذي أراد الله له أن يكون نقطة ارتكاز لدعوة الإسلام ، يحتاج إلى الأمن والاستقرار والحماية ..

ب – أن ناس هذا المركز هو الذين يفوزون إلى قوة هذه الدعوة حين يجنبون عبادة الأصنام .

ج – أن استمرار ناس هذا المركز لا يكون إلا بتوفير الرزق الحلال إليهم .

في ضوء هذا التوضيح نستطيع أن نسلط الضوء على الوقائع التالية :

أ – لا وثنية في الجزيرة

عندما ننفي أن تكون في الجزيرة العربية وثنية فنحن لا ننفي أن تحدث فيها نكسات تنبت خلالها رؤوس شياطين الأوثان .

نحن نعني بنفي أن تكون في الجزيرة وثنية ، أن سكان الجزيرة لم يعرفوا العقيدة الوثنية النابعة من جذور تاريخية ذات صلة بثقافة القوم الأصلية وعقائدهم وآدابهم . فالثابت أن وثنية الجاهلية التي سبقت الإسلام . وهي التي جاءتنا عنها المعلومات الوثنية الثابتة ، هي وثنية غريبة . جاءت من الخارج وبقيت في حياة أبناء الجزيرة قشرة خارجية لا تتصل بوحداناتهم ولم تبرز في آدابهم وحكمتهم وجملة ثقافاتهم . " كانت أشبه بالأفكار الأجنبية الوافدة التي تستهوي بعض الفئات ولكنها لا تبلغ في قوتها أن تصبح جزءاً من تراث القوم وثقافتهم العميقة " .. إنها ظاهرة طغيان أجنبي .. وفي القصة المروية عن دخول أول صنم إلى الجزيرة العربة ما يثبت هذه الحقيقة .

فقد قيل أن قصي بن كلاب أحد أجداد قبيلة قريش قد أعجبته في بلاد الشام عبادة القوم للأصنام . فحمل منها صنماً إلى مكة . وإذا كانت الأصنام قد تكاثرت من بعد فيلفت كما قيل في بعض

الروايات 360 صنماً فقد كان ذلك بسبب العصبيات المتنافسة ، لا بدافع من التراث الروحي العميق لشعب الجزيرة . والدليل على ذلك أن أحداً من المؤرخين لا يستطيع أن يزعم بأن في أدب الجاهلية ما يشير إلى استقلال الأصنام بفكر الأدباء ورؤية الشعراء وعقول الحكماء .

كأن شأنها كشأن النظريات التي تغزو العالم العربي الإسلامي اليوم والتي جاءته على غفلة من وعيه مع موجات الحضارات الغربية . وكما أن أدب الجاهلية الأولى لم يتفاعل مع الأصنام القديمة فإنّ أدبنا اليوم في جاهليتنا المعاصرة لا يتفاعل مع النظريات الأجنبية الوافدة إلا في حدود فئة قليلة من الناس .

إن في وجود هذه وتلك ما ينبيء بالانتكاسة أو بانتقاد الأصالة . وهي ظاهرة مرحلية لا يلبث الناس أن يتجاوزوها كما تجاوزوا جاهليتهم بيقظة الشخصية الإسلامية عن طريق الدعوة القرآنية التي هي في حقيقتها تجديد لدعوة إبراهيم الخليل حين سمى نفسه وولده مسلمين واعتبر ذريته أمة مسلمة ونادى ربه أن يعصمهم من عبادة الأصنام .

وإذن فالإسلام ليس رؤية جديدة على العرب سكان الجزيرة ولا هو ظاهرة غريبة آتية من عالم غير عالم الجزيرة بل هو تجديد للشخصية التاريخية العميقة في شعب الجزيرة وإبراز للمضمون الروحي الثابت عند ناس الجاهلية .

وكما أن جاهلية اليوم هي انتكاسة طارئة حدثت تحت ضغط الهجرات الأجنبية إلينا فإنّ جاهلية الأمس هي انتكاسة طارئة حدثت تحت ضغط التأثير الأجنبي .

في ضوء هذا التفسير نفينا أن تكون الوثنية جزءاً أساسياً من ثقافة الجزيرة العربية قبل الإسلام كما ننفي أن تكون فلسفات الأجنبي الطارئة علينا في يومنا هذا جزءاً أساسياً من ثقافتنا التاريخية العميقة . وكما زالت تلك بانتفاضة التجديد فإنّ هذه ستزول بانتفاضة التجديد أيضاً .

ب – العقيدة هي الناس

إذا كانت الوقائع الثقافية والحوليات الأساسية لتاريخ الجاهلية قبل الإسلام قد كشفت عن غربة الوثنية في تلك الأزمنة العريقة في القدم . وإذا كان أبو الأنبياء إبراهيم الخليل قد أعلن بأمر من ربه أنه وولده مسلمان وطالب ربه ضارعاً أن يجعل ذريته من بعده أمة مسلمة له وأن يرسل لهذه الأمة نبياً من أبنائها يعلمها الكتاب والحكمة ، فإنّ هذه الحقيقة كافية وحدها للكشف عن الدور المهم الذي لعبه أبناء البلد الحرام وبالتالي أولئك الناس الذين تعاقبوا قررنا طويلة من قبل ومن بعد .

إن أهمية المكان من الناحية الجغرافية والمعنى الذي يرمز إليه هذا المكان لا يثبتان ما لم يصبح ناس هذا المكان بالذات حملة العقيدة ورواد الرسالة المعدين لتحمل المتاعب والارتفاع إلى مستويات عالية في سلم التطور الاعتقادي .

وإذا كانت العقيدة هي الناس فيما تتميز به من الفاعلية والعالمية والشمول . فقد وجب أن يكون حملتها من هؤلاء الناس هم المؤهلين لقيادة مقدراتها والعمل على دفع مسيرتها نحو المستقبل .

وإذن فإنّ أبناء هذه الجزيرة العربية قد اختارهم الله سبحانه وتعالى دون سواهم حين اختار بيت مكة المحرم مثابة للعالمين وأمناً . وطالب الجميع بالتوجه إلى هذا البيت قبلة لهم وغرضاً وحيداً تجتمع عنده أحلامهم وأطماحهم .

في الآيتين 125 – 126 من سورة البقرة ما يوضح هذا الجانب من الموضوع قال تعالى :

" وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(125)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)"..

هكذا حقّت كلمة ربنا على الناس جميعاً أن يختاروا هذا البيت الكريم .وليس هذا وحسب بل تناول التكريم شخص إبراهيم عليه السلام حين جعل الله سبحانه وتعالى من مقامه مصلى للناس . وبذلك يكون البارىء تعالى علواً كبيراً قد منح شخص إبراهيم أولوية التوجيه وأعلى من مقامه وأكد أن مصير العقيدة مرتبط بمصير البشر . فهي قوية عميقة صادقة بوجود المؤمن القوي الصادق . ويدعو إبراهيم ربه أن يوفر الضمانات الضرورية للبيت المحرم بحيث يصبح قادراً على القيام بمهمته حتى يلقى الناس وجه ربهم حين قال : رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ...

وقد يظن البعض أن هذا الاختيار الإلهي للمكان وللناس يعني تفضيلاً للناس هناك على من سواهم بغض النظر عن سلوكهم وتصرفهم وأفكارهم ، فيقعون فيما وقع فيه بعض أحفاد إبراهيم الخليل من اليهود ممن زعموا من بعد أنهم أحباء الله والمفضلون على عباده لا لشيء إلا لأنهم من شعب الله المختار .

ورداً على هذا الغرور الأجوف الذي تسقط معه ميزة الإنسان الرائد لأهله جاء على لسان إبراهيم الخليل تعقيباً على مطالبته بالأمن والثمرات لأهل البيت المحرم ووصفاً لأهل البيت قوله : " مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ" ويستمر النص القرآني في الآية نفسها على لسان الله سبحانه حين قال زيادة في توضيح صفة أهل البيت: " قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ "..

وتأتي قبل الآيتين اللتين أوردناهما قبل قليل آية ثالثة توضح معنى المسؤولية الرسالية التي وكلت إلى ذرية إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى الآية 124 من سورة البقرة : "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ".. ويستبين لنا من هذا النص الواضح الصريح أن ذرية إبراهيم لا تمتاز من الناس بأي امتياز . فهي تؤم سواها حين تتوفر فيها شروط الإمامة . وهي تسقط في ميزان المعايير الإلهية حين تكون من الظالمين .

ونمضي في قراءة آيات تالية لنجد أن الصفة الوحيدة الممنوحة لكل البشر بما فيهم ذرية إبراهيم هي صفة الإسلام لله والقنوت بين يديه والتبرؤ من كل امتياز مسبق . ولنجد اتهاماً صريحاً بالعدوان لأولئك الذين يزعمون أنهم الشعب المختار لمجرد كونهم يهوداً أو نصارى لا بسبب أنهم بشر عابدون متصفون بصفات الصدق في العقيدة والاستقامة في السلوك . قال تعالى فى الآيات 133 حتى 138 من سورة البقرة .

" أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(133)تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(134)وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(135)قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(136) فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(137)صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ (138)"..

هكذا تكون هذه الآيات الكريمة قد أحاطت علماً بمعنى العبادة ووصفاً لها حين وضعت الناس جميعاً على مستوى واحد أمام الله لا فرق بين يهودي أو نصراني وبين غيرهما من البشر بل الكل سواء

أمام الله. فهم حين يهتدون مؤمنون بالله مسلمون له أمرهم . وسمتهم الآيات القرآنية مسلمين لا فيما أوردناه منها وحسب بل في آيات أخرى كثيرة .

المهم أن اختيار وادي مكة مكانا للبيت المحرم وناس هذا الوادي أئمة للدعوة لا يعني امتيازاً في طبيعة الأرض وجوهر النسب بل يعني مزيداً من الابتلاء والإحساس بالمسؤولية وقد اعتبر الله سبحانه وتعالى هذه الإمامة " ابتلاء " حين قال في آية سابقة " 124 " : " وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ" وشرع المقصود في الكلمات حين قال : " الَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا " . ومنعاً للظن بأن هذه الإمامة وراثية بمقتضى النسب والانتماء الأسري عقبت الآية قائلة على لسان إبراهيم سائلاً : قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي " ؟ فأجابه الله لا نفياً ولا ايجاباً بل شرحاً لمعنى الإمامة ووصفاً لمن لا يستحقونها حين قال : " قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ " ..

أوَلا يكفي هذا كله توضيحاً لمعنى الاختيار الصادر عنه سبحانه وتعالى حين جعل من وادي مكة مكاناً للبيت الحرام ومن ذرية إبراهيم في مكة وغيرها أئمة لحمل رسالة الدعوة ؟..

وإذن فاختيار وادي مكة أمر نابع من طبيعة السنن الكونية التي تنتظم بها الأشياء وتتحقق بها إرادة الله في تنظيم الخلق . واختيار ناس معينين هو أيضاً نابع من طبيعة هذه السنن التي لا تميز بشرياً من بشري. بل الكل عباد مخلقون .

وبهذا المعنى وحسب يجب أن نفهم قوله تعالى في الآية 33 من سورة آل عمران : " إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ "..

إن اصطفاءهم يعني ابتلاءهم بحمل الرسالة . وحمل الرسالة يعطى صفة الإمامة لصاحبها . والإمامة ريادة يتعين على من يتصف بها أن يكون من أحسن الناس أخلاقاً وأكثرهم تضحية دون من يشوب قيامه بالدعوة ودون أذى يخالط تعامله مع الناس .

فإذا أحسن فهو المقدم في الثواب . وإذا أساء فهو المقدم في العقوبة " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ".

خلاصـة

هذه المعاني التي تواردت على ذهننا في أثناء قراءتنا للآيات المتعلقة برفع قواعد البيت الحرام وبالحوار الذي جرى بين إبراهيم الخليل وبين ربه إن في أثناء العمل في البناء أو قبل ذلك حين كاشف قومه

بالدعوة إلى الله وجرى بينه وبينهم ما جرى من الأحداث ، تثبت بما لا سبيل إلى الشك فيه بأن نبوة أبي الأنبياء هي بمثابة التخطيط الشامل لأبعاد الدعوة في مرحلة من التاريخ البشري أصبح فيها للعقل ولمحاكماته دور أكبر من ذي قبل. بهذه النبوة تعين مركز الدعوة واستبانت صفة الأئمة الدعاة . وظهرت حقيقة المساواة في التكليف وحقيقة التمايز في الاستجابة لأمر الله . فالكل عباد مسلمون لله يصدق عليهم ما يصدق على كل نبي . ويؤاخذ الجميع على أخطائهم في حدود ما يمتلكونه من الوعي والعلم والقدرة على التمييز العقلي . لا فضل ليهودي على غير يهودي ولا لنصراني على غير نصراني ولا لعربي على عجمي . بل الكل عباد مكرمون حين يستحقون الكرامة بأعمالهم . والكل عباد معذبون حين يستحقون العذاب الأليم.

وبناء على ذلك نستطيع أن نقول أن الإعلام الإلهي قد اعتمد خطة واضحة المعالم في الدعوة إلى الدين الحنيف حين :

1) جعل المحاكمة العقلية طريق المعرفة .

2) جعل المعجزة المادية عاملاً مساعداً يقفز فوق القوانين لغرض تعليمي فيتفاوت تدخلها في حياة الأنبياء بتفاوت الوعي عند الناس . كما جعلها ظاهرة مرحلية حتى تتم مراحل التطور الثقافي عبر القرون .

3) جعل وادي مكة مكاناً للبيت الحرام الذي يعتبره وحده قبلة للناس: " وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " صدق الله العظيم، الآية 150 من سورة البقرة .

الفصل الثالث

يبدو لنا أن رسالات الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وإن اشتركت في جوهر الدعوة الدينية إلا أنها تباينت تبايناً كبيراً في الخطة والنهج والأسلوب ، مع العلم أن من بين هذه الخطط خطة يشترك فيها كل الأنبياء غير محمد عليه السلام آخرهم .

أما أن الرسالات النبوية ذات جوهر مشترك منذ أبينا آدم حتى يوم النبي العربي ففي أنها كلها ذات غرض واحد هو الدعوة إلى الوحدانية وتفتيح بصيرة الإنسان على الحقيقة الإلهية بحيث يشعر هذا الإنسان بالحضور الإلهي في كل مستوى من مستويات الوجود وعلى كل صورة من الصور .

كل الأنبياء مشتركون في القول بأن الدين عندالله الإسلام بمعنى التسليم بوجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى . وكل الأنبياء مشتركون في الإعلان عن حقيقة الوحي وفي أن تعاليمهم ليست من ذوات أنفسهم بل هي من الله خالق الخلق وبارىء النسم .

أما الخطة أو النهج أو الأسلوب الذي اشترك فيه كل الأنبياء غير محمد بن عبد الله ففي أنهم جميعاً مهما تفاوتت حظوظهم من التعاليم الدينية التفصيلية فإنّهم جميعًا مشتركون في الاستعانة بالمعجزات . وفي أن المعجزات المادية العابرة بالنسبة إليهم هي التي تميز رسالة كل منهم من الجانب التطبيقي العلمي لكأن المقصود بهذه المعجزات هو الإدهاش والإثارة عند جماعة معينة وفي وقت معين. فالمعجزة المادية بطبيعتها لا تستمر كإجراء مادي ، إلا في حال وقوعها ثم تصبح بعد ذلك خبراً من الأخبار . ففيها العقوبة وفيها الزجر والروع وفيها الإثارة والإدهاش كما قلنا ولكنها تبقى خاصة بالجماعة من الناس الذين يعاصرونها .

أما رسول الإسلام ونبي القرآن الكريم فلم يتسلح بالمعجزة بمعناها المادي وإذا صح أنه قد أوتي المعجزة المادية فجرت على يديه في وقت معين فإنّ هذه المعجزة لا تعتبر جزءاً أساسياً من الدعوة الدينية التي أتى بها . مع العلم أن المشركين والكفرة من اليهود والنصارى قد طالبوه بإجراء مثل هذه المعجزة وحاولوا غير مرة أن يستدرجوه إليها ولكنه لم يفعل عملاً بأوامر ربه وقصداً إلى تقرير حقائق الرسالة على غير الوجه الذي تقررت به رسالات الأنبياء السابقين .

لنقرأ الآيات الكريمة التالية من سورة الإسراء.. قال تعالى ابتداء من الآية 90 : " وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (90)أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (91)أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً (92)أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (93)وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً (94)قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً (95)قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا(96) "..

هكذا رفض الله سبحانه وتعالى هذا النوع من التحديات التي واجهت الأنبياء الأولين فاستجابت لها الإرادة الإلهية في أيامهم لكن ما حدث في أيام النبوة المحمدية هو غير ذلك .

وتعدد الآيات التي أوردناها أنواع التحديات فهي تتناول الأشياء التالية :

1) تفجير ينبوع من الأرض الصحراوية القاحلة .

2) اخراج جنة فيها نخيل وعنب تفجرت خلالها الأنهار.

3) اسقاط السماء كسفاً فوق رؤوس البشر .

4) الإتيان بالله والملائكة جميعاً ليشهدوا على صحة النبوة .

5) أن يخرج فوق الأرض قصراً مزخرفا .

6) أن يرقى إلى السماء ويشهد الكافرون رقيه ثم لا يكتفون بهذا بل يريدون منه أن يعود إليهم بكتاب يقرؤونه.

كل هذه وغيرها مما ورد في آيات كريمة أخرى هي مطالب سبقوا بمثلها من قبل شعوب عاصرت الأنبياء الأولين ولكنها قوبلت بالرفض لأن منهج الدعوة الإسلامية في مواجهة العناد والجهل والمكابرة مختلف عن منهجها عند الأنبياء الأولين .

وتقرر الآيات الأخيرة من النصوص التي أوردناها أن العامل الجوهري الذي دفع المعاندين إلى طرح تلك المطالب هو تساؤلهم الإنكاري عما إذا كان من الحكمة أن يبعث الله رسولاً من البشر ؟ ذلك أنهم غير مقتنعين بأن في وسع الرسول أن يكون بشراً . فدعوة السماء يجب أن تكون على يد مخلوق سماوي .

ويقول القرآن رداً على هذا التساؤل الإنكاري : لو كان في الأرض ملائكة يمشون كما تمشون أيها الناس لأرسل الله واحداً منهم رسولا عليهم ونبياً لهم . ذلك أن جنس الرسول يكون بالضرورة من جنس المرسل إليهم .

ثم يعقب القرآن الكريم فيقول لمحمد عليه السلام : قل لهم يا محمد يكفيني أن الله شهيد بيني وبينكم فهو بعباده خبير وبحقيقتهم بصير .

حتى الرد على المطالبة بإجراء المعجزات كان في أيام محمد عليه السلام رداً من طبيعة المنهج الذي استقلت به الدعوة الإسلامية وهو منهج الحوار المنطقي والمناقشة التي تستند إلى البصيرة والعقل النير الحكيم .

عودة إلى الاستجابة النبوية السابقة

فإذا عدنا إلى نبوات الأنبياء السابقين ابتداء من أبي الأنبياء إبراهيم الخليل حتى عيسى عليه السلام لوجدنا أن كل الأنبياء على تفاوت حظوظهم من المعجزات كانوا يستجيبون بأمر الله للمطالب التي توجه إليهم أو للصعوبات التي كانت تعترض طريقهم بما يتفق مع طبيعة المعجزة ومع طبيعة الدور الذي يجب أن تقوم به .

فهذا النبي موسى عليه السلام يواجه تحديات السحر بسحر من مثله فيلقي عصاه لتصبح حية تتلقف سحر السحرة عند فرعون . وهو نفسه الذي يضرب الصخرة بعصاه فتتفجر ماء .

وهو نفسه الذي يضرب البحر فتنحسر مياهه ويمر شعبه فوق أرض يابسة ثم تعود المياه إلى ما كانت عليه لتغرق فرعون ومن معه .

ولو شئنا أن نعدد بقية المعجزات عند النبي موسى عليه السلام لوجدنا فيها ظاهرة الاستجابة لتحديات تعترض طريقه أو لمطالب صادرة عن قومه لتمتحن نبوته ..

وما يصدق على موسى يصدق على عيسى وإن اختلفت نوعية المعجزات عند الثاني . كل هذا يؤكد لنا أن الخطة التي توسلها الأنبياء السابقون كلهم مختلفة اختلافاً جذرياً عن الخطة التي التزم بها النبي محمد عليه السلام بسبب الظروف الخاصة التي كانت ترافقه الدعوة الإسلامية من ناحية والدعوات السابقة لها من ناحية أخرى .

قضيـة مكابــرة

ويعلن القرآن الكريم بمنطق الدعوة الإسلامية أن القضية بالنسبة لأصحاب المطالب الموجهة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي قضية مكابرة لا قضية رغبة في الإقتناع فاصحاب هذه المطالب فاقدون لعنصر الهداية الذي هو البصيرة المتفتحة .

جاء في الآية 111 من سورة الأنعام :

" وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ "..

وإذن فالسبب وراء كفر الكافرين وعناد المعاندين أنهم يرفضون دعوة الإيمان أصلاً وأن الظلمة تكتنفهم فتغرق قلوبهم في العماء حتى ولو أنزل الله عليهم الملائكة وجعل الموتى يكلمونهم .

لقد كانت خطة الدعوة الإسلامية في ضوء المرحلة التي جاءت فيها هذه الدعوة مخاطبة العقول والبصائر من وراء العقول أي العقول المستنيرة التي اجتمعت لها ملكات الوعي السليم .

لماذا المعجزات المادية وأنواعـها ؟

ومن حقنا هنا أن نتساءل : لماذا كانت المعجزات المادية جزءاً أساسياً بل الجزء الأهم من خطة الدعوات النبوية السابقة لدعوة محمد عليه السلام ؟

هل كان البشر الأولون يختلفون نوعاً عن البشر المتأخرين أيام الدعوة الإسلامية ؟

وماذا كانت أبعاد الدعوات الأولى ؟

وما هي أنواعها ؟

البشر الأولون يختلفون :

في وسعنا القول أن الوعي البشري ليس نتيجة للمعرفة العلمية وحسب . فإلى جانب المعرفة يقف الزمن والوراثة عنصراً هاماً في تاريخ الوعي الإنساني .

فكما أن الخبرة التي تتوفر للفرد مشروطة بالمعاناة الطويلة والتفتح العقلي والارتباط بمراحل زمنية معينة فإنّ هذه الخبرة الواعية بالذات لا تتوفر للمجتمع ما لم تكن المعاناة المرحلية عنصراً هاماً من عناصر تكوينها .

من هنا كان الإدهاش والإثارة اللذان يحركان الحواس بعنف بالغ ضروريين بالنسبة للفرد المراهق أو للشعوب المراهقة .

فالمعجزة المادية أشبه بالصدمات الكهربائية العنيفة التي توقظ الأعصاب البليدة وتنبه الوعي النائم.

فالشعوب القديمة كانت أحوج ما تكون إلى هذه المعجزة المادية لأنها لم تكن تطيق الحوار الهادىء الهادف الذي يعتمد عند المخاطب " بفتح الطاء " على ثقافة ومعاناة راسختين بعيدتي الجذور قديمتي العهد.

ولهذا كانت الاستجابة العقلية وما يتبعها من تفتح البصيرة من البطء والبلادة بحيث أن جهود الأنبياء كانت تسقط في الفراغ رغم الأحداث العجيبة التي تجري على أيديهم .

وإذن فالمجتمعات القديمة كانت مجتمعات مختلفة في ملكاتها . وكان من سنة الله في الخلق أن تكون تصرفات الأنبياء من طبيعة المرحلة التاريخية لهذه المجتمعات .

ونحن لا نعني بذلك أن البشرية اليوم لم تعد تضم بين شعوبها مثل هذه المجتمعات فهناك عدد كبير منها ما يزال يعيش حتى القرن العشرين . ولكننا نعني بذلك أن الرسالات الدينية كانت تهدف إلى إعداد قيادات واعية تكون بمثابة الطليعة الرائدة التي تشد المجتمع البشري إلى الأمام . والإعداد لا يكون بقدر قادر ولا بضربة سحرية بل بمجهود مرحلية تتصف كل مرحلة منها بطابع معين يعد للطابع الذي يأتي بعده.

وما مجيء الدعوة في آخر المطاف بالخطة الإعلامية الخالية من المعجزات إلا للإعلان عن أن هذه الطليعة الرائدة قد توفرت لها كل الأسباب والظروف التي تتحرر معها من بلادة الاستجابة الروحية وانغلاق البصيرة .

إن الحقيقة الواقعة التي لا ريب فيها هي أن الشعوب السابقة التي تتابعت قبل ظهور النبي محمد عليه السلام كانت مجرد علامات وعنوان على ألوان من المعاناة في طريق التاريخ البشري الطويل .

أبعاد الدعوات الأولى :

ومما يلفت النظر أن الدعوات الدينية السابقة على دعوة الإسلام لم تكن ذات أبعاد عالمية . فقد كان يبعث كل نبي في قومه . وبذلك كانت دعوته عملياً في حدود الشعب الذي يتربى بين ظهرانيه .

وإذن فقد كانت دعوات محلية كما يبدو لنا لسببين :

1) وضع المجتمع البشري المتخلف في تلك القرون الخوالي .

2) العزلة العميقة التي كانت تباعد بين القبائل والشعوب بسبب عنف العصبيات القبلية أو الأسرية الضيقة . ولنا في تحجر العصبية اليهودية العنصرية التي تبدو معالمها واضحة في تعاليم التلمود والعهد القديم الآية والعلامة. وما يصح على اليهود اليوم في ضوء كتاباتهم المقدسة كان يصح على بقية الشعوب . والفرق بين اليهود وغيرهم من هذه الناحية أن غيرهم لم تحبسه قوقعية العصبية لأسباب لا مجال لتعداد ظروفها في هذا الغرض . يكفي أن نذكر بأن بني اسرائيل قد زعموا أن الرب هو ربهم من دون الناس . وأنهم أحلوا لأنفسهم الاستئثار بكل نعمة من نعم الله فلا يرون لأحد من الأميين " أي غيرهم من الشعوب " حقاً في الحياة أو الكرامة أو الحرية .. فالناس كلهم في خدمتهم لأنهم شعب الله المختار . وإذا كانت زينة السماء وثروات الأرض قد جعلت لكل الناس فإنّ كل الناس غير بني اسرائيل هم عبيد لهؤلاء تستحل دماؤهم وأعراضهم وأقوالهم دون قيد أو شرط.

هذه العقلية الدينية المتحجرة لم تأت اليهود دون سواهم في العصور القديمة بل كانت ظاهرة مشتركة بين كل الناس . وخرج الناس من هذه العقلية غير بني إسرائيل . من هنا يتبين لنا أن العقلية اليهودية المتحجرة هي بقية من حفائر التاريخ البشري القديم مع فارق واحد هو أن الحفائر اليهودية بقيت على صورة الإنسان مع احتفاظها بمعنى الحفيرة وأبعادها النفسية والأخلاقية والفكرية .

أنواع الدعوات الأولى :

لم تكن ظروف الأنبياء ، ولا سيما أنبياء بني اسرائيل واحدة . فهاهم أيام يوسف بن يعقوب قلة قليلة لم تكن تسمح لها ظروفها وحجومها البشرية بأن تلعب دوراً هاماً في مجموعات الناس . ولذلك فقد كانت نبوة يوسف عليه السلام ضمن إطار النموذج الفردي أولاً ثم العائلي . ثم لم تتجاوز دعوته ما وراء ذلك . وقد اتخذت هذه الدعوة صفة الرجل الطيب الغريب عن إخوته وعن بقية الناس . فكان النموذج الكريم الذي وقف تأثيره عند من اتصل به من غير أفراد أسرته ثم عند أفراد هذه الأسرة وحسب . ولم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى ظهور دعوة دينية خاصة به وبالناس جميعاً . كان أشبه بالمصباح المنير في ظلمة دامسة تضم آفاق الدنيا كلها من حوله . فمضت حياته دون صخب وما كانت استجابته للأحداث التي امتحن بها ابتداء من الجب الذي ألقاه فيه أخوته وانتهاء بالمهمة الكبيرة التي وكلت إليه من قبل عزيز مصر ، مروراً بحادثته مع امرأة العزيز ثم بالسجن الذي احتجز فيه عدداً من السنين ،غير الاستجابة التي يتميز بها هذا المصباح أمام الظلمة الدامسة .

كان أثر يوسف في تحريك الوثنية ضده كأثر المصباح في تحريك الظلمة من حوله ،كلاهما مر في التاريخ كما يمر الحادث الذي يشير إلى بداية عصر حافل بالأحداث. فكانت نوعية تصرفاته وآثارها على صورة المرحلة التاريخية التي ظهر فيها مع العلم أن رسالته كانت رسالة الوحدانية ولكنها في ذلك الوقت لم تكن الرسالة التي تهدد المجتمع بالتغيير الجذري أو تهدد بالقضاء على توازنه .

وكذلك كان شأن الأنبياء الذين أتوا من بعده . وقد يختلف عدد الذين يتأثرون بالواحد منهم ولكنهم بقوا أشبه بالمصابيح المتباعدة في صميم الظلمة العامة وإن تباينت ردود الأفعال التي نجمت عن إعلان الدعوة الدينية من قبل كل منهم .

كان كل منهم كالشهاب الثاقب في الفضاء العريض . فإذا مضى الشهاب انضمت موجات الفضاء المظلم على المكان الذي يمر منه فتبتلعه ظلمات التاريخ .

حتى إذا جاء موسى عليه السلام كان بنو اسرائيل أكثر عدداً وأشد قوة . وقد استطاع النبي بواسطتهم وبعمق الأثر الذي أحدثه في مجتمع مصر أن يوجه أنواراً كاشفة فتحت العيون على أخطارها فتحرك المجتمع المصري الفرعوني خوفاً من التهديد الذي كانت تمثله هذه الأنوار . فكانت المعركة التي يحدثنا عنها القرآن الكريم وكانت المعجزات التي رافقتها فأنقذت موسى وبين اسرائيل من خطر الوثنية الفرعونية وشرك الناس . وليس أدل على أن نوعية الدعوة الموسوية مختلفة نوعاً وكمّاً عن الدعوات السابقة من أن وحياً تفصيلياً قد نزل وأن شرعة نامية قد ظهرت بهذا الوحي إيذانا بظهور مرحلة جديدة في تاريخ النبوات.

أما الأنبياء الذين جاؤوا من بعده فقد مثلوا استمراراً لدعوته اللهم غير النبي داوود الذي آتاه الله الزبور والحكمة . وهو الوحي المكتوب الذي لم يلبث أن اندمج في تراث اليهودية الديني وفقد شخصيته المستقلة.

ويأتي بعد قرون لا يحصيها التاريخ بدقة مقنعة النبي عيسى عليه السلام فيكون ظهوره هزة جديدة في تاريخ الحركة الدينية السماوية التي استقل بها اليهود على امتداد الفترة التي تفصل عصره عن عصر النبي موسى . وبالرغم من أن وحياً نزل في كتاب سماوي خاص (الانجيل) فإنّ المسيحية بقيت في منطق التاريخ عملية تصحيح للانحراف اليهودي وإن أنكرها اليهود ورفضوها . وبقي الطابع المحلي سمة الإنجيل

كما كان سمة التوراة مع فارق واحد هو أن الانجيل قد حطم التحجر الديني اليهودي وفتح باب الدعة على مصراعيه لكل شعوب العالم .

أما دور المعجزة في الدعوة المسيحية فهو نفسه الدور الذي قامت به في الدعوة الموسوية مع فارق في نوعية المعجزات . واختلاف النوعية ناجم عن اختلاف التحديات التي واجهت كلاً من النبيين المرسلين . لكن المعجزة بقيت العامل المساعد الأساسي للدعوة الدينية .

الطريقة الإبراهيمية

في ضوء كل الحقائق والملاحظات التي سجلناها فيما كتبناه حتى اليوم من حلقات هذه الدراسة يتردد في ذهننا سؤال بالغ الأهمية . هل أن أساليب الحوار التي أوحي بها إلى أبي الأنبياء الخليل صلوات الله وسلامه عليه هي ظاهرة استثنائية في تاريخ الدعوات الدينية السابقة لدعوة الإسلام العربية ؟ أم أنها مرحلة طبيعية في جملة المراحل التي مرت بها هذه الدعوات ؟ وبعبارة أخرى : هل أن ظهور مجموعة الحوارات التي أشرنا إليها حين تحدثنا عن نبوة أبي الأنبياء قد تكررت عند الأنبياء اللاحقين به من أبنائه وأحفاده الإسرائيليين ؟ أم أن هذه الحوارات كانت بمثابة التخطيط الأساسي الذي أمر الله به أن يوضع على اعتبار أنه الغاية البعيدة لرسالات الأنبياء ؟ وأن هذا التخطيط قد تم وتحقق جملة وتفصيلاً بآخر الرسالات الدينية التي هي رسالة الإسلام ؟

نعم ولا :

الحقيقة كما يبدو لنا من متابعتنا للأحداث أن نبوة أبي الانبياء في تحركات صاحبها عليه السلام كانت تخطيطاً مستقبلياً لبشرية الغد من ناحية وإشارة خضراء موجهة لأنبياء بني اسرائيل يتصرفون في ضوئها ويتخذون طرائقها بأمر الله من ناحية أخرى .

فهي إذن ذات غرضين متداخلين: غرض يتصل بمراحل الدعوات المتتابعة وغرض يتصل بختامها الذي هو الإسلام.

أنواع الحوار :

عرفنا أن الحوار الذي أجراه أبو الأنبياء خلال حياته كان على أنواع وعلى درجات مختلفة في المستوى والاتساع ، كان :

1) حواراً بين إبراهيم ونفسه حين راح يراقب أشياء الكون وكواكب الفضاء وانتهى بهذا الحوار إلى الإيمان بالله حين رفض أن يعبد الكائنات المتغيرة والمتعرضة للأفول والزوال .

2) حواراً بينه وبين أبيه وأبناء قريته وقد انتهى إلى إفحام الجميع من قبل النبي عليه السلام . وهو الحوار الذي دفع المعاندين من أبناء القرية إلى إلقاء النبي في النار مما جعل معجزة إنقاذه فيها ضرورة لاستمرار دعوته من ناحية والقضاء على لجاج الكافرين من ناحية أخرى .

3) حواراً بينه وبين ملك البلاد الذي استدعاه وحاول أن يزايد عليه فأسكته النبي حين قال : فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ "..

4) حواراً بينه وبين ربه كشفت له فيه العناية الإلهية عن طبيعة الصلة بين الخالق والمخلوقات وسلطت أمامه الضوء الكاشف على طريقة الله في إحياء الموتى كما في قوله تعالى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" فأعلن الله بذلك أن الصلة بين المخلوقات وخالقها ليست صلة المنطق الأرسطي بل هي صلة الإرادة النابعة من الذات الإلهية وقد شرحنا ذلك في حينه.

كل هذه الحوارات تكررت في حيوات الأنبياء وظهرت ألوان مختلفة في تتابع حوادثها .

فمن الحوار الأول الذي كانت فيه معالم الفضاء الكوني منطلقاً للإيمان بالله نجد في جواب موسى عن سؤال فرعون له ولأخيه عن ربهما ما يذكرنا بدور أشياء الطبيعة أو الكون في إثبات وجود الله . فقد جاء في الآيات 49 – 55 من سورة طه :

" قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (52)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (53)كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى (54)مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى(55) "

ومن الحوار الذي جرى بين أبي الأنبياء وقومه نجد من مثله عشرات من الأمثلة في سورة قرآنية عديدة ولنا في الآيات 83 – 98 من سورة طه أيضاً ما يعطي صورة واضحة من الحوار الذي كان يجرى بين بعض الأنبياء ومن يعاصرهم من الناس .

وفي هذه الآيات حوار طويل تتعدد أطرافه بين موسى عليه السلام وبين قومه قال تعالى : " وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83)قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (86)قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91)قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92)أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي(93) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95)قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(98) "..

أفليست هذه الآيات القرآنية الكريمة حواراً يجري بين أطراف متعددة يكون فيها السامري طرف الكفر والشرك والعصيان ؟

وكما كان التهديد موجهاً من قبل أبي الأنبياء بتحطيم الأوثان كان مثل هذا التهديد من موسى النبي بتحريق العجل ونسفه في اليم نسفاً في نهاية الحوار .

ولعلنا في غير حاجة إلى الاستشهاد بمثل هذه الآيات فالقرآن حافل بها عند كل موقف يصف حواراً بين النبي –أي نبي– وقومه المعاندين له .

ومن الحوار الذي جرى بين سيدنا إبراهيم الخليل وبين ملك بلاده نجد مثله في الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون . بل أن الحوار بين موسى وفرعون قد تميز من الحوار الأول بقدر أكبر من الحركة ومن الأحداث المفاجئة. لقد قبل موسى عليه السلام التحدي الفرعوني فواعد فرعون على أن يلتقي مع السحرة في يوم معين . وقد حدث ذلك فعلاً بعد أن جمع السحرة من قدماء المصريين الفراعنة كل أسباب فنهم السحري وتواصوا بضرورة القضاء على هذا الإنسان الذي يقول أنه نبي مرسل من الله . واجتمع القوم وجاء موسى وحده تسانده الرعاية الإلهية حتى إذا ألقى السحرة بسحرهم وتحولت عصيهم وحبالهم إلى أفاعي تسعى أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن اثبت واطمئن وألقِ ما في يمينك ، وهي عصاه المعروفه ، تلقف ما صنعوا . ثم أضاف الله سبحانه وتعالى يقول له لتحقيق المزيد من الطمأنينة في نفسه إنما صنعوه يا موسى هو تخييل وتزييف .

لنقرأ الآيات القرآنية التي تقص علينا قصة هذا الحوار العملي المشترك بين فرعون وموسى والسحرة جاء في الآيات 57 – 73 من سورة طه .

" قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (58)قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61)فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى(62)قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63)فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65)قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66)فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (67)قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (68)وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69)فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73) "..

لعل القارىء المتأمل في غير حاجة لمن يدله على الواقعية الحية المثيرة في هذا الحوار الذي تقصه علينا الآيات الكريمة على نحو لم يعرفه القصصيون . فالحقيقة أننا عاجزون عن اختزال كلمة واحدة من الحوار . ولئن فعلنا لأسقطنا جانباً من جوانب الصورة والأثر اللذين قصد إليهما الوحي السماوي . إن في هذا الحوار ما هو أوسع أفقاً من الحوار القصير السريع الذي جرى قبل بين إبراهيم الخليل وصاحب الملك في بلاده . فالحوار الإبراهيمي كان نموذجاً سريعاً يقتصر على اللمحة واللمسة بينما حوار موسى وفرعون والسحرة حافل بالحركة والأفكار وردود الأفعال التي تحتفظ بحركية الحادثة وواقعيتها .

ومن الحوار الذي جرى بين إبراهيم الخليل وبين ربه نجد مثله بين كل من موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء وبين ربهم ولكن الحوار الذي جرى بين كل من موسى وعيسى والله يبدو لنا ذا طابع خاص ويتميز بموقف مخالف عن الموقف الذي وقفه أبو الأنبياء بأمر من ربه .

أما موقف أبي الأنبياء فهو موقف يكشف عن رغبة خفية قوية في أعماق كل إنسان في معرفة الصلة الحقيقية بين الخالق والمخلوق وفي الكشف عن السر الذي يتم به خروج الحياة من الموت والوجود من العدم . وقد تحدثنا عن ظاهرة الإرادة الإلهية في غير هذه الصفحة والتي هي وحدها التي تفسر خروج الحياة من الموت . كما أنها هي وحدها التي يمكن أن يستوعبها عقل إنساني .

لكن موقف موسى عليه السلام مختلف عن موقف أبيه من قبله . إنه يكشف عن درجة أعلى في درجات الطموح الإنساني إلى معرفة ما لا سبيل للملكات الإنسانية العادية أن تعرفه . لقد طمح موسى ، وقد وجد نفسه على غير إرادة منه أمام ربه حين رأى ناراً فتوجه إليها على أمل أن يعود منها بقبس أو يهتدى بها إلى الطريق في الصحراء . وتروي الآيات القرآنية في بداية سورة طه ما جرى بعد ذلك من مناداة الله للنبي بخطاب مباشر علمه فيه كلمات وأطلعه على ما منحه إياه من قدرات معجزة خاصة يواجه بها أعداءه وأعداء الله . فإذا خيل لموسى ، وقد شهد عصاه تتحول حية تسعى ونظر إلى النور يخرج من يده فإذا هي بيضاء من غير سوء ، أدركه ما يدرك كل إنسان يقف في مثل موقفه . لقد أدركه الإحساس بأن له على الله دالة خاصة فظن أن في وسعه الطلب إليه تعالى في أن يحقق له حلماً آخر أكبر من حلم أبيه إبراهيم.لقد طمح عليه السلام إلى أن يرى وجه ربه دون ستار مسدل بينه وبينه . وما كان لموسى وغير موسى من البشر أن يطمح إلى مثل هذه الرؤية لولا أن الله سبحانه وتعالى قد وضع في نفس الإنسان مثل هذه الرغبة سعياً وراء المزيد من المعرفة .ويكون الجواب الصادر عن الله تعليماً جديداً

يضاف إلى ما سبقه من العلم ينبيء فيه موسى أن طموحه كإنسان وكنبي أكبر كثيراً من قدرته .وأن الله لا يحتجب عنه بنوره تكبراً ولا تجبراً ، وهو الكبير المتعال ، بل وضعاً للأمور في مواضعها وإفهاماً للإنسان بأن حدوده في إدراك ذات الله لا تتجاوز القدرات التي منحها الله له . إنه يقول له : رؤيتك لي جديرة بالقضاء على جسدك وعلى كل ما تخرج به حياتك من الموت ويتحقق به وجودك من العدم . فأنت في حاجة إلى درجة من القوة تفوق كثيراً قوة الجبل الأشم . ثم انظر إلى الجبل الذي أمامك فإذا استقر مكانه حين أتجلى له فإنّ لك أن تراني .

لنقرأ الكلام الإلهي كما جاء في الآية 143 من سورة الأعراف فإنّ فيها البلاغ، قال تعالى :
وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ "..

هكذا تمضى الآية القرآنية لتقص علينا قصة جانب من الغرور الإنساني حين يؤتى الإنسان بعض القدرات الخاصة من مثل القدرات السحرية التي أوتيها موسى عليه السلام . إن في الآية تصويراً لطبيعة المخلوق البشري حين تتوفر له قوة غير عادية . وفيها بالتالي تعليم صحريح واضح لأخلاق التواضع إلى جانب الله عز وجل .

كما أن في هذه الآية الكريمة ما يذكرنا بالإنسان اليوم وقد كتب له ان يتعرف إلى بعض قوانين الطبيعة وأن يستخدم هذه القوانين في الإفادة من نعم الله عليه فإنّه لم يلبث حتى غره بالله الغرور فنسي ربه وعبد ذات فساءت عبادته طريقة وسبيلاً.

وهل الإلحاد المستشري في عصرنا غير تعبير عن الغرور الأجوف الذي أنسى الإنسان قدر نفسه فدفعه إلى التصرف والتفكير في حمق وجهالة ووقاحة .

أما الحوار الذي جرى بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام فهو ظاهرة جديدة غير الظاهرتين السابقتين اللتين عرفناهما في حوار كل من النبيين موسى وإبراهيم عليهما السلام .

كانت قرون عديدة من الزمن قد مضت بعد العهد الموسوي . وكانت البشرية قد حققت مزيداً من المنجزات فأصابها من الغرور دوار غامت به الطريق وضاعت معالم الهداية .

لقد خيل للإنسان الذي كان يعاصر عيسى بن مريم أن في وسعه استيعاب الحقيقة الإلهية فيكون هو الله نفسه . ثم لا يقف الإنسان عند الرغبة الخفية والنية المبيتة بل يتجاوزها إلى رسم عيسى بن مريم إلهاً خالقاً للكون فتكون من ذلك فتنة كبيرة للنبي الكريم لا يلبث أن يتبرأ منها أمام ربه فخر خاشعاً مستغفراً تائباً معترفاً بعبوديته . وقد جاءته هذه الفتنة وهو نفسه الذي قال لقومه وكان ما يزال طفلاً صغيراً وقد امتنعت امه مريم عن أن تكلم قومها ثلاثة أيام عملاً بالأمر الإلهي مشيرة إلى وليدها الرضيع .. إنه هو نفسه الذي قال لقومه يومذاك وقد استغرقتهم الدهشة واستولت عليهم الشكوك : إني عبد الله .

لنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة مريم قال تعالى :

" فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(30)

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(32)

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)"..

رغم هذا التصريح الصريح الذي صدر عن الطفل الصغير أصر الإنسان في ذلك العصر البائد أن يبلغ بغروره مرتبة الارتفاع بإنسانيته إلى مرتبة الألوهية . وهنا يأتي الحوار بين الله وعبده عيسى تحدياً للإنسان وتعييناً لمكانته الحقيقية حين يوجه الله تعالى سؤاله إلى من جعله الناس إلهاً رغم أنفه فقال عز من قائل في الآيات 116 – 119 من سورة المائدة :

" وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117)إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(119) "..

وطبيعي أن الله سبحانه وتعالى في غير حاجة إلى استجواب نبيه وعبده عيسى لمعرفة ما إذا كان قد زعم لقومه أنه وأمه إلهان من دون الله ولكن الآيات نزلت على هذه الصورة حكاية لما وقع ليكون تأثير الحكاية أوقع في نفوس السامعين ولا سيما أن المسؤول هو نفسه الذي يبرئ نفسه أمام الله من مزاعم بعض قومه معترفاً بعبوديته وعبودية أمه وكل مخلوق سواهما لله عز وجل . ذاكراً عليه السلام أنه موكل من الله بالشهادة على قومه فإذا توفاه الله ونقله إلى الرفيق الأعلى كان هو سبحانه الشاهد والرقيب .

وكم كان النبي العبد الطائع رقيقاً في نفسه ورفيقاً بقومه حين قال لربه : " إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " فكأن عيسى عليه السلام كان يأمل رغم المكابرة والمعاندة عند بني قومه في أن يجد في رحمة الله متسعاً لغرور هؤلاء القوم وسفاهتهم . وهو لا يقول هذا الرجاء صراحة وبلغة مباشرة بل يترك الأمر لربه على نحو يشعر فيه الله بما تحفل به نفسه ، وهو النبي الذي يعرف من الله ما لا نعرفه نحن ، من الأمل في أن يختار الخالق سبحانه الرحمة لهؤلاء السفهاء وهو القادر على تعذيبهم في نار جهنم .

تلخيص ما سبق :

فيما يلي نضع خلاصة سريعة للأفكار الرئيسية التي وردت فيما كتبناه عن النبوات بعد إبراهيم الخليل عليه السلام .

1) بقيت المعجزة كوسيلة للتخويف والزجر أو الادهاش أو العقوبة . وكعنصر أساسي في الدعوة الدينية حتى عيسى عليه السلام .

2) بقيت المعجزة والدعوة الدينية متميزتين بطابع محلي مرتبط بقوم معينين ولكن هذا الطابع يفقد كثيراً من محدوديته عملياً في نبوة عيسى عليه السلام .

3) اختلفت المعجزات وتباينت أنواعها تبعاً للتحديات التي كانت تواجه الأنبياء عليهم السلام .

4) تكررت كل أنواع الحوار الإبراهيمي بين الأنبياء وغيرهم مع فارق واحد هو أن أنواع الحوار المتأخر قد أصبحت أكثر ثراء في الأحداث والحركة .

5) اتسم الحوار بين النبي وربه بثلاث درجات رئيسة تضم أنواع الطموح الذي يضطرب به روح الإنسان.

1 –الطموح إلى معرفة سر الخلق عند أبي الانبياء إبراهيم الخليل.

2- الطموح إلى رؤية الله بالعين المجردة عند موسى عليه السلام .

3- الطموح إلى الارتفاع إلى مستوى الألوهية عند الإنسان المعاصر للنبي عيسى عليه السلام وهو أقصى ما حلم به الغرور الإنساني .

6) كل الحقائق والملاحظات التي سجلناها حتى الآن مرتبطة بظاهرة الاستمرار في نوعية الدعوة الدينية تؤكد بأن هذه الدعوة لم تكن حتى عهد النبي عيسى عليه السلام قد بلغت مرحلة العالمية . وقد سبق أن ذكرنا بأن إبراهيم أبا الأنبياء قد كانت نبوته بالإضافة إلى طبيعة الحوار والمحاكمات العقلية وأنواع المواجهات التي حققها ، والتي كانت بمثابة الإشارة الخضراء التي تعين طرائق العمل أمام أبنائه وأحفاده من أنبياء بني اسرائيل ، ذات تخطيط مستقبلي أيضاً . أو بعبارة أخرى أبعاد مستقبلية .

الأبعاد المستقبلية للدعوة الإبراهيمية :

ذكرنا في الفصل الثاني من هذا العرض أن إبراهيم الخليل بعد نجاته من النار ومن طغيان صاحب الملك في بلاده قد خرج بأهله مهاجراً إلى أرض بعيدة وكانت نقلته إلى وادي مكة وما عقبها من أحداث ابتداء من تركه لولده اسماعيل حتى رفعه لقواعد البيت الحرام متعاوناً مع ولده ظاهرة تلفت النظر. وقد تحدثنا عن جانب من المعاني التي تثيرها هذه النقلة في نفوسنا .

وهنا نذكر الجانب الآخر الذي هدانا الله اليه ونحن نتأمل ما في تصرفات هذا النبي الكريم من وقائع وأحداث ليس بينها في ظاهر الأمر رابطة واضحة .

الشيء الذي يلفت النظر أن وادي مكة في تلك القرون الخوالي لم تكن مركز الدنيا البشرية المتحركة . ولم يكن في ظروفها الجغرافية والاقتصادية ما يشجع على الظن بأنها ستكون المركز الرئيسي لحركة الدنيا فيما بعد . فهي واد غير ذي زرع . ويزيد في تصوير جدبه أن النبي نفسه قد دعا ربه تيسير سبل العيش لقومها بجعل الغرباء يغدون اليها زرافات ووحداناً إحياء لذكر الله من ناحية وتوفيراً لرزق سكانها من ناحية أخرى . أفليس في هذه الظاهرة ما يدعو إلى الدهشة والاستغراب ؟

نحن لن نكرر هنا ما قلناه من قبل بصدد الإختيار الإلهي للأرض التي جعلها خير أرض وللناس الذين بيت لهم مسؤولية الدعوة القيادية إليه سبحانه وتعالى وأعدهم لها جيلاً وراء جيل وقرناً بعد قرن . لكننا نلفت النظر إلى الأبعاد المستقبلية لسلوكه وتصرفاته .

رمزية التصرف

الشيء المتفق عليه أن نشاط الدعوات الدينية الكبرى من بعد الدعوة الإبراهيمية غير الإسلام قد جرى فوق أرض غير أرض الحجاز . فقد كانت مصر وفلسطين مسرحين أساسيين لها .

والشيء المتفق عليه أن الدعوة الدينية الوحيدة التي خرجت من وادي مكة هي حالة الدعوات متمثلة في شخص محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . أفلا ندرك من هذا التصرف الإبراهيمي الذي تم بأمر من الله طبعا بأن الإشراقة الكبرى للهداية والتي تتم بها الدعوة السماوية فصولاً ومشاهد قد كتب لها أن تخرج في آخر المطاف من وادي مكة ؟ وأن البيت الحرام سيلعب من بعد دوراً حاسماً في استقطاب قلوب الملايين لا من أبناء الجزيرة العربية وحسب ولا من أبناء الأقطار المجاورة لها والتي استعربت من بعد بل من أبناء شعوب بعيدة لا تربطهم بها رابطة ملك ولا لغة ولا مصالح اقتصادية بل رابطة العقيدة الدينية المحضة؟.

أوَليس في هذا التصرف الرمزي ما يقرر حقيقة هامة هي أن لعامل العقيدة دوراً أولياُ في تحقيق الروابط بين الناس يضاف إلى روابط المصالح الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ؟

أفلا نجد في إقدام النبي إبراهيم وولده اسماعيل على رفع قواعد البيت الحرام في مكان يكاد يكون قفراً من البشر ومن أسباب الحياة وموارد الماء ما يعلن عن طبيعة العقيدة الدينية المرتقبة ويعين أبعادها العالمية ويشير إلى طابعها الفريد الخاص الذي تتجاوز به الأبعاد العملية التطبيقية لكل الدعوات الدينية السابقة رغم وحدة العقيدة؟!

أفليس في هذا كله توكيد لظاهرة الخطة المرحلية التي وضعتها الحكمة الإلهية في إعلان وحدة الإنسان من خلال وحدة العقيدة ؟

هذه المعاني والخطوات ذات الأعراض المستقبلية تكمن في الآيات القرآنية التالية :

1) أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين " الآية 96 من سورة آل عمران " إعلان صريح عن أن أول قبلة عينت للناس في بداية الزمن البشري هي هذا البيت العتيق وفي ذلك الوادي المجدب . ولعل الجدب وحده أن يكون الرد القوى على زعم الزاعمين بأن موارد الثروة المادية هي وحدها التي تستقل بتجميع البشر دون سواها .

2) وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً " الآية 125 من سورة البقرة " إعلان للناس بأن البيت العتيق قد جعل مستراحاً للمتطهرين والباحثين عن الأمن المادي والنفسي كما جعل أيضاً توكيداً لظاهرة التهذيب النفسي عند المغرورين والمتكبرين ممن غرتهم الحياة الدنيا وزينتها .

3) فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " الآيات 106 – 107 – 108 من سورة قريش " ترفيع آخر لمرتبة البيت الحرام يظهر لنا في جعله موضعاً لربوبية الله لكأن هذه الربوبية منيرة تتعمق معانيها في جدران هذا البيت وأرضه وهي التي ترمز إلى وحدة العبادة في وحدة العقيدة . وفي الآيتين " الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " يقصد أهل مكة ، ما يؤكد امتياز البيت بتقرير قوة العقيدة وعظمتها وقدرتها على توفير أسباب العيش الكريم والأمن لمن يعيش عند البيت الحرام .

كل هذه الملاحظات تسلط الأضواء على الغاية المستقبلية لسلوك أبي الانبياء وولده اسماعيل من بعده في وادي مكة . إنه السلوك الذي يسلط الضوء الكاشف على المعاني الأصيلة لاختيار البيت والأرض وعلى الأغراض التي ستتحقق بفضل الامتياز الرباني الاعتقادي لهما بعد 25 قرناً ونيف من وفاة النبيين إبراهيم واسماعيل عليهما السلام .